الفصل الرابع

فشل الحملة الصليبية الثانية

وحملة فردريك بربروسا في آسيا الصغرى

- القضاء على جيش كونراد الثالث في آسيا الصغرى.
- هزيمة جيش لويس السابع في آسيا الصغرى.
- نهاية جيش فردريك بربروسا في آسيا الصغرى.

القضاء على جيش كونراد الثالث في آسيا الصغرى:

يبدو أن صليبي الحملة الصليبية الثانية قد نسوا ما وقع لحملة سنة ١١٠١م من دمار في آسيا الصغرى، نتيجة لهجوم السلاجقة عليها من ناحية، والظروف الجغرافية القاسية لإقليم آسيا الصغرى من ناحية أخرى، واتضح ذلك عندما قام كونراد الثالث ولويس السابع-بعد أقل من نصف قرن- بحملة صليبية، وجاءا ليعبرا بجيشيهما آسيا الصغرى، ويعيدا الكرة مرة أخرى(١).

ذلك أن كونراد الثالث بعد أن عبر البسفور إلى آسيا الصغرى وصل إلى نيقية في النصف الأول من شهر أكتوبر سنة ١١٤٧م، ومن هذه المدينة(٢) يتفرع ثلاثة طرق تؤدي إلى أنطاكية: الطريق الأول يقع إلى اليسار وهو أقصر الطرق، وإذا لم يعترض فيه سير الصليبيين العوائق يمكن عبوره في ثلاثة أسابيع، لكن يعوق السير فيه الثلوج التي تغطي المرتفعات أثناء الشتاء، وهذا الطريق يمر بضورولیوم وقونية وهرقلة وأبواب قيليقية.

أما الطريق الثاني فيقع إلى اليمين، وهو أوفر في الإمدادات وأكثر أمانًا من الطريق السابق، إلا أن عبوره يستغرق وقتًا أطول، ويعترض السير فيه الخلجان الطويلة والأنهار العديدة، ويمر هذا الطريق بعدة مراكز أهمها برجاموس وأفسوس وليكونيا وسلوقية.

ويقع الطريق الثالث والأخير في الوسط، وهو أقل مزايا من الطريقين السابقين، ولكن أقل في العوائق، فهو أكثر طولًا وأفضل أمنًا من الطريق الأول، وأقصر مسافة وأفقر في المؤن من الطريق الثاني، ويمر بعدة مراكز أهمها برجاموس وفيلادلفيا ولأودكيا وأضاليا ومنها إلى أبواب قيليقية(٣).

وقد اختار كونراد الثالث الطريق الأيسر وهو أقصر الطرق وأخطرها في نفس الوقت، ويخترق أراضي السلاجقة-كان هذا هو الطريق الذي سلكه صليبيو الحملة

---

(١) حسن عبد الوهاب، أثر العوامل الجغرافية، ص٣٠٢.

(٢) يذكر أودو أن هذه الطرق الثلاثة تبدأ من مدينة نيقوميديا، ولكن الصحيح أنها تبدأ من مدينة نيقية.
Odo of Deuil, De Profectione, p. 89, Note 3.

(3)Odo of Deuil, De Profectione, p. 89؛ Oman, Art of War, I, p. 244؛

الأولى- بعد أن رفض نصيحة مانويل بتجنب هذا الطريق واتخاذ الطريق الساحلي عبر آسيا الصغرى بدلًا منه، ولو أخذ الملك الألماني بهذه النصيحة، وسلك الطريق الساحلي لتمكن إلى حد كبير الابتعاد عن الهجوم السلجوقي على جيشه، والاستفادة من المدن والقلاع والحصون البيزنطية الواقعة على امتداد الساحل الغربي لآسيا الصغرى، وكذلك الاستفادة من معونة الأسطول البيزنطي في أغراض الحماية والتموين والنقل عند الحاجة، وبذلك يصل إلى بلاد الشام في سهولة ويسر[1].

ويرى البعض أن ارتياب كونراد الثالث في نوايا مانويل جعلته لا يعبأ بنصائحه، ويتخذ هذا الطريق، مما أدى إلى هلاك جيشه، في حين يرى البعض الآخر أن سبب رفض الملك الألماني اتخاذ الطريق الساحلي وتفضيله السير في هذه المنطقة الصحراوية يرجع إلى رغبته في إجبار جيشه على الإسراع هروبًا من مصاعب تلك الصحاري القاحلة[2]، ولكن هذا الرأي غير منطقي، فكيف يمكن لقائد جيش أن يجازف ويسير في منطقة مجهولة بالنسبة له، وقد حذر من السير فيها لوعورتها، الأمر الذي يعرض جيشه لمصاعب ربما ليذهب ضحيتها، لا لشيء إلا لكي يسرع في السير.

لكن ما هو السبب وراء اتخاذ كونراد الثالث هذا الطريق؟، ألم يكن يعرف ما عاناه صليبيي الحملة الأولى باتخاذهم إياه، ثم ما حدث لبعض فرق حملة سنة ١١٠١م من إبادة عندما سارت فيه؟، أم أنه كان يعرف طرق ومسالك آسيا الصغرى واعتقد أنه يمكن عبورها بسهولة ودون خوف؟، أم أنه اتخذ من الإجراءات والترتيبات ما يحول دون وقوع كارثة حملة سنة ١١٠١م؟.

إن الواقع كان على النقيض من ذلك تمامًا، فمما لا شك فيه أن أخبار مأساة حملة سنة ١١٠١م في آسيا الصغرى قد وصلت إلى الغرب الأوربي، كما أن كونراد الثالث لم يكن يعرف أيضًا أي شيء عن جغرافية آسيا الصغرى، بدليل أنه طلب من مانويل

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, p. 89؛ Oman, Art of War, I, p. 244؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 282.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٤٨٨؛ سالم محمد الحميده، الحروب الصليبية، عهد الوحدة، ج٣، (بغداد ١٩٩٣)، ص٢٨.

(2)Annals Herbipolenses, p. 5؛ Annales Palidenses, p. 83.

المرشدين لمساعدته وتوجيهه في طرقها حيث قال له: «أما أنت فما عليك إلا أن تدلنا على الطرق المؤدية إلى قونية، وتقدم لنا أحد رجالك يرشدنا، ويقودنا إلى أراضي لا نعرفها»[١].

يضاف إلى ذلك أنه لم يتخذ أي إجراءات ليتجنب صعوبات السير في آسيا الصغرى، فلم يغتنم الفرصة التي قدمها له مانويل عندما عرض عليه التحالف الذي كان يتضمن ترك بعض فرق من الجيش الألماني في القسطنطينية، مقابل الحصول على بعض القوات العسكرية البيزنطية لتصاحبه أثناء عبوره آسيا الصغرى، تلك القوات التي كانت لديها خبرة طويلة بطرق هذا الإقليم وبأساليب مقاتلة السلاجقة[٢].

وقد ذكر كونراد الثالث السبب الذي جعله يصر على اتخاذ ذلك الطريق في خطابه إلى ويالبد وهو رغبته في أن يصل إلى بلاد الشام وينجز حملته في أسرع وقت ممكن[٣]،ورد على نصيحة مانويل بعدم السير في هذا الطريق بقوله: «إنه مهما كان الطريق الذي نسلكه وعرًا، إلا أننا من أجل الذي بوسعه كل شيء، وفي سبيله تركنا كل شيء، وواجهنا باختيارنا هذه المشقات برًا وبحرًا وسط شتى المخاطر، سنمضي قدمًا مهما كلفنا الأمر، وسنحارب أمم البرابرة مستنجدين بالرب...»[٤].

ولكن باختيار الملك الألماني هذا قد خطط لتدمير قواته وفشل حملته، وأعطى الفرصة المناسبة للسلاجقة للهجوم على جيشه مستفيدين من جهل الألمان بمسالك آسيا الصغرى، ومستغلين فرصة تشردهم في هذه الأراضي المقفرة، فاندفعوا نحوهم، وقاموا بالهجوم عليهم، وهم في حالة شديدة من التعب والإرهاق[٥].

ويبدو أن كونراد الثالث أثناء وجوده في نيقية أخذ يفكر بصورة أكثر جدية في

---

(1)Annales Herbipolenses, p. 5.

(2)Kinnamos, Deeds, p. 68؛ Grousset, Croisades, 2, p. 233؛ Brrey, Second Crusade, p. 486.

(٣) انظر الملحق الأول.

(4)Annals Herbipolenses, p. 5.

(5)Roger of Wendover, Flowers of History, English Trans. Giles, J.A.I, (London 1894), p. 500.

سعيد عمران، الحروب الصليبية، ص٧٨-٧٩.

نصائح مانويل، خاصة فيما يتعلق بخطورة هذا الحشد من المدنيين في الجيش الألماني وما يسببه له من صعوبات في الحصول على المؤن اللازمة، لذلك قام بتقسيم جيشه إلى قسمين: القسم الأول تألف من الغير محاربين ويضم رجال الدين والشيوخ والنساء والأطفال مع بعض القوات العسكرية القليلة، وبلغ تعداد هذا القسم حوالي ٥/١ الجيش الصليبي (١٤ ألفًا)، وتولى قيادته أوتو الفريزي وبرنارد كونت كارانثيه Bernard Count of Carinthie، واتخذ الطريق الساحلي عبر آسيا الصغرى الذي سبق ونصح به مانويل كونراد الثالث، أما القسم الثاني فقد تألف من القوات المحاربة في الجيش الألماني، وكان على رأسه كونراد الثالث، واتخذ طريق الحملة الصليبية الأولى(١).

بعد أن قضى الجيش الألماني ثلاثة أيام في نيقية غادرها في ١٥ أكتوبر، واتجه القسم الرئيسي من الجيش بقيادة كونراد الثالث إلى قونية لتبدأ رحلة عذاب الجيش الألماني في آسيا الصغرى التي سوف تنتهي بهلاك معظمه على أيدي السلاجقة.

ذلك أنه بعد أن ترك الجيش المدينة بفترة قصيرة دخل منطقة صحراوية قاحلة، وكانت أول الصعوبات التي واجهته في هذه المنطقة النقص الشديد في الغذاء؛ لأن ما أخذه كونراد الثالث معه من مؤن من نيقية قد أمدت الجيش باحتياجاته لمدة ثمانية أيام فقط، علمًا بأنه كان على الجيش الألماني أن يقطع مسافة ٢٠٠ ميل في فترة زمنية قدرها ٢٠ يومًا حتى يصل إلى قونية، لذا لم تكن هذه المؤن كافية لإمداده بما يحتاج إليه من إمدادات أثناء سيره، خاصة مع معرفة أنه كان يسير ببطء بسبب وعورة الطريق، ومن ثم أخذت المؤن في التناقص يومًا بعد يوم، وبدأت معاناته(٢).

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال هام وهو: لماذا لم يأخذ كونراد الثالث معه من القسطنطينية مؤنًا وفيرة تكفيه لهذه الرحلة الطويلة، خاصة وأن مانويل أخبره بمخاطر

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, p. 89؛ Grousset, Croisades, 2, p. 334؛Chalandon, Les Comnenes, p. 334؛ Duggan, Crusades, p. 113.

(2)Annales Herbipolenses, p.5؛ Grousset, Croisades, 2, p.234؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 284؛ Berry, Second crusade, pp. 495-496؛ Oman, Art of War, I, p. 245.

هذا الطريق وما يتعرض له السائر فيه من جوع وعطش شديدين؟.

يبدو أن سبب ذلك هو اعتقاد كونراد الثالث بأنه سيصل إلى قونية سريعًا بعد أن اختار أقصر الطرق، هذا بالإضافة إلى ثقته واعتماده على المرشدين الذين قدمهم له مانويل، وقال وليم الصوري في بداية حديثه عنهم وقبل أن يتهمهم بخيانة الألمان: «إنهم جاءوا ورائدهم الإخلاص في إرشاد الجيوش المسيحية، فلا يباغت العسكر الذين يقتفون خطاهم بخطر لا يتوقعونه أو يفاجئون بصعوبة لا ينتظرونها، ولا يكابدون نقصًا في الطعام أثناء سيرهم»(١).

وبهذا لم يكن كونراد الثالث يتوقع أن تواجهه أية صعوبات في هذه الرحلة القصيرة، ولو فرض وتعرض لأي خطر، فقد كان معه المرشدين الذين يستطيعون تذليل الصعاب أمامه، وتوفير ما يحتاج إليه أثناء سيره، لكن خاب ظن الملك الألماني، إذ نفذت مؤن الجيش بعد ثمانية أيام من مغادرته نيقية قرب فيلومليون، وهو على بعد ٧٠ أو ٨٠ ميلاً من قونية، واستمر الجيش الألماني يسير لمدة يومين وهو على هذه الحالة على أمل أن يصل إلى قونية، إلا أن ذلك لم يحدث، عندئذ-في ٢٥ أكتوبر- استدعى الملك الألماني المرشدين وسألهم عن سبب التأخير فأكدوا له أن الجيش سيصل إلى قونية بعد ثلاثة أيام، لكنهم لم يلبثوا أن هربوا تحت جنح الظلام تاركين الجيش الألماني وسط الصحاري ليواجه مصيره ويشق طريقه بنفسه وسط المجهول(٢).

كان هروب المرشدين هذا سببًا في اتهامهم بخيانة الجيش الألماني في آسيا الصغرى، وأنهم تعمدوا قيادته إلى هذه المناطق الصحراوية الوعرة ليتركوه هناك، بل إن هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك فذكر: أن هؤلاء المرشدين بعد هروبهم اتجهوا إلى السلاجقة وأخبروهم بحالة الجيش الألماني ومعاناته وشجعوهم على الهجوم عليه(٣)، ويعتقد

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٧٣.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 91-93؛ Anonymi Auctoris Charonicon, C.S,C.O, 354, 2, French Trans. Albert, A., p. 111؛ Grousset, Croisades, 2, p. 234؛ Idem, L'Epopee, p. 167؛ Oman, Art of War, I, p. 245.

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٧٣-٢٧٤.

(3)Odo of Deuil, De Profectione, p. 93؛ Roger of Wendover, Flowers, I, p. 500؛ Anonymi Auctoris Chronicon, 2, p. 111؛ Helmold, Chronicle, p. 173؛ Mills,

وليم الصوري أن هذه الخيانة خُطط لها بأمر مانويل أو نتيجة رشوة السلاجقة للمرشدين[1].

ولكن كما سبق واتضح أن مانويل لم يكن له يد فيما وقع لصليبي الحملة الثانية في آسيا الصغرى، كما أن كونراد الثالث قد اختار هذا الطريق الذي يخترق أراضي صحراوية بمحض إرادته وليس بناء على رأي المرشدين، ومما يدل على براءة المرشدين أن كونراد الثالث لم يذكر ذلك في خطابه إلى ويالبد، فهو يذكر فقط وجود مرشدين معه لإرشاده إلى طرق ومدن آسيا الصغرى، وعندما ذكر هجوم السلاجقة على جيشه لم يذكر أي شيء عن هروبهم أو أي خيانة من جانبهم[2].

أما بالنسبة للسلاجقة فلم يكونوا بحاجة إلى المرشدين ليرشونهم؛ ذلك لأنهم سيقفون على أمر الجيش الألماني إن عاجلاً أم آجلاً وهو يخترق أراضيهم، ولكن الأقرب إلى الصواب هو أن هؤلاء المرشدين وقعوا أثناء هروبهم في يد السلطان السلجوقي مسعود، فتأكد منهم على صدق ما لديه من معلومات عن الحالة السيئة للجيش الألماني[3].

هذا بالإضافة إلى أن القسم الثاني من الجيش الألماني الذي كان تحت قيادة أوتو الفريزي، لقي هزيمة ساحقة-كما سنرى- على أيدي السلاجقة رغم وجود المرشدين معه، ولم تذكر المصادر ترك المرشدين لهذا القسم أو خيانتهم له، إذا فالهجوم السلجوقي لا يرتبط بوجود المرشدين أو عدم وجودهم[4]، ثم كيف يجرؤ هؤلاء المرشدين على أن يقوموا بخيانة الألمان؟، ألم يكونوا يخشون عقاب مانويل إذا رجعوا إليه واكتشف خيانتهم، خاصة بعدما تحسنت العلاقات بينه وبين كونراد الثالث؟.

وبذلك فإن إلصاق تهمة الخيانة بالمرشدين البيزنطيين ليس له أساس من الصحة،

=

Crusades, I, p. 378.

ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل، ج٣، ص٢٥٣؛الرهاوي المجهول، الحملتين الأولى والثانية، ص٨٠.

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٧٣.

(٢) انظر الملحق الأول.

(٣) سعيد عمران، الحروب الصليبية، ص٨٠.

(٤) سعيد عمران، الحروب الصليبية، ص٨١.

أما ما دفعهم إلى الهروب وترك الجيش الألماني فقد كان خوفهم من انتقام الملك الألماني خاصة بعد تهديده لهم ونفاذ مؤن الجيش دون أن يصل إلى قونية[١].

ويبدو أن ما دفع الألمان إلى اتهام المرشدين بالخيانة، هو أنهم عندما وجدوا أنفسهم يموتون جوعًا على أراضي يجهلونها لم يجدوا أمامهم كبش فداء سوى المرشدين فاتهموهم بالخيانة[٢].

على أي حال اشتدت معاناة الألمان بعد هروب المرشدين، إذ وجدوا أنفسهم تائهين في بلد لا يعرفون مسالكه، ويعانون من الجوع والعطش، فماذا يفعلون؟، هل يتقدمون إلى الأمام أم يرجعون إلى الوراء؟، فإذا تقدموا من يضمن لهم الوصول إلى بر الأمان، وإذا انسحبوا هل يضمنوا عدم قيام السلاجقة بالقضاء عليهم؟.

وفي ظل هذا الوضع دعا كونراد الثالث قادته للاجتماع، فرأى البعض ضرورة الانسحاب والعودة إلى الوطن، في حين رأى البعض الآخر ضرورة الاستمرار في رحلتهم، وفي النهاية اتخذ الملك الألمانى قراره بمواصلة الزحف إلى قونية[٣].

بيد أن كونراد الثالث سرعان ما أدرك خطأ هذا القرار-الذي سيدفع ثمنه القضاء على حملته-، ذلك أن الجيش الألماني عانى في هذه المرحلة شدائد قاسية؛ فاشتد الجوع بالألمان حتى كادت تزهق أرواحهم، ولسوء حظهم لم تكن توجد أية مدن أو قرى عامرة أمامهم، فضلاً عن أنه لم يكن بوسعهم التجول بعيدًا للبحث عن الغذاء؛ خوفًا من كمائن السلاجقة الذين كانوا يراقبون تحركاتهم، وكذلك اشتد عليهم العطش، ولم يجدوا في تلك الصحراوات أي مصدر من مصادر المياه، الأمر الذي عرضهم للمرض والضعف، وأدى إلى موت عدد كبير منهم، فضلاً عن الخسارة الفادحة في خيولهم[٤].

---

(1)Chalandon, Les comnenes, p. 285.

(2)Oman, Art of War, I, p. 245.

(٣) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٧٥.

(4)Annales Herbipolenses, p. 5؛ Annales Magdeburgenses, p. 188؛ Annales Egmundani, ed, Pertz, G. H, M.G.H. ss, 16, (Hanover 1859), p. 456؛ Anonymi Auctoris Chronicon, 2, p. 111؛ Williamof Newburgh, English Affairs, I, p. 95.

الرهاوي المجهول، الحملتين الأولى والثانية، ص٨٠.

ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص٢٧؛ أبو شامه، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق/

على هذه الصورة كانت حالة الجيش الألماني أثناء سيره إلى قونية، أما السلاجقة: فإن السلطان السلجوقي مسعود كان قد علم بأمر هذه الحملة منذ فترة طويلة، فأخذ يستعد للتصدي لها، وأعد لها ما استطاع من قوة، فقام بتحصين المدن والقلاع وترميم ما احتاج منها إلى ترميم، ووضع القوات على الطرق والمعابر، هذا في الوقت الذي أرسل فيه مبعوثيه إلى مختلف البلاد الإسلامية يحثهم فيه على نجدته ومساعدته في التصدي لهذه الحملة الصليبية، فاجتمعت لديه جيوش ضخمة سواء من أطراف دولته المختلفة أو من حلفائه من أرمينية، ومن الدانشمنديين، وأيضًا من بلاد الجزيرة الفراتية، وأخذت هذه القوات مواقعها على حدود بلاده واستعدت للمعركة مع الجيش الألماني(١).

واستغل السلاجقة الحالة السيئة التي وصل إليها الألمان، وأرسلوا بعض الفرق العسكرية للهجوم عليهم أثناء سيرهم، فلم تأخذهم بهم شفقة ولا رحمة، وأخذوا يمطرونهم بوابل من سهامهم دون أن يبدي هؤلاء أية مقاومة بسبب ما كانوا عليه من ضعف وهوان(٢).

واستمروا على هذه الحالة حتى وصل الألمان قرب نهر باثيس Bathys-يقع في المنطقة المجاورة لضورورليوم- فقاموا بالانقضاض عليهم، وقد أحسن السلاجقة اختيار هذا الوقت بالذات لدخول المعركة مع الألمان بعد أن أنهكهم الجوع والعطش والسير الطويل، في الوقت الذي كان السلطان مسعود وحلفاؤه في قمة نشاطهم، ينعمون بالراحة والظل.

وحانت لهم الفرصة سانحة عندما تقدم كونراد الثالث وبعض قادة الجيش إلى

=

إبراهيم الزيتون، ج١، (بيروت، ١٩٩٧)، ص١٨٤؛ حسن عبد الوهاب، أثر العوامل الجغرافية، ص٣٠٢.

(1)Annales Herbipolenses, p. 6؛ Roger of Wendover, Flowers, I, pp. 499-500؛ Grousset, Croisades, 2, p. 235؛ Mills, Crusades, I, p. 378.

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٧٢؛ علي المحيميد، الدانشمنديون، ص٢٢٨.

(2)John of Salisbury, The Historia Pontificalis, English Trans. Chibnall, M., (Oxford 1986), p. 54؛ William of Newburgh, English Affairs, I, p.95.

النهر ليرووا عطشهم تاركين بقية الجيش خلفهم-على بعد ٤ أميال- عندئذ انقض السلاجقة على المعسكر الألماني من كل الجهات وأمطروه بوابل سهامهم، فأخذ الألمان المفاجأة وعجزوا عن التصدي لهذا الهجوم الشرس، خاصة بعد أن أصاب الضعف الشديد سلاح الفرسان بسبب موت عدد كبير من الخيول، وما بقى منها أُنهكت قواه من شدة الجوع والعطش، ولم تعد قادرة على المناورة أو المقاومة[١]، وكان لهذا الوابل من السهام دورًا كبيرًا في إضعاف الجيش الألماني والقضاء على تماسكه، وإيقاع العديد من الخسائر في الرجال والخيول، وهو ما كان يهدف إليه السلاجقة[٢].

وعبر وليم الصوري عن أثر ذلك على الجيش الألماني بقوله: «لكن عسكرنا صاروا في خطر لكثرة ما انهال عليهم من السهام والنشاب التي لم ينقطع وابلها، والتي كانت تتساقط عليهم من كل جانب دون أن تتاح لهم فرصة ينزلون بخصمهم مثل الذي أنزله بهم أو يلتحمون به من قريب»[٣].

وإذا حدث وحاول الألمان القيام بهجوم مضاد فإن السلاجقة كانوا ينسحبون سريعًا راغبين من وراء ذلك سحب العدو بعيدًاحيث تنصب له الكمائن وينقضون عليه، وقاموا بهذه العملية عدة مرات، مما أصاب الألمان بالضعف والارتباك، وعجزوا عن فعل أي شيء أو التخطيط لأي أمر من الأمور[٤].

بعد ذلك بقليل وعندما عاد كونراد الثالث إلى المعسكر وجد المعركة محتدمة بين جيشه من ناحية والسلاجقة وحلفائهم من ناحية أخرى، فحاول أن يجمع شمل قواته، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا أمام هذا الهجوم السلجوقي الشديد، فحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وأخذ يحث قادته على نجدة إخوانهم والانتقام من السلاجقة قائلاً: «يبدو لي أيها الرجال أن المعركة قائمة بين رجالنا والعدو، فمن كان يريد الحرب في سبيل

---

(1)Annales Herbipolenses, p. 6؛ Roger of Wendover, Flowers, I, p. 500؛ Grousset, Croisades, 2, p. 239؛ Idem, L'Epopee, pp. 167-168؛ Oman, Art of War, I, p. 245.

(٢) سميل (ر.س)، الحروب الصليبية، ترجمة/ سامي هاشم، (بيروت ١٩٨٢) ص٧٩-٨٠.

(٣) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٧٧.

(4)Kinnamos, Deeds, p. 68.

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٢٧.

الرب يتبعني لنجدة إخواننا ونصرتهم»[١]، وكان أن اشتبك الألمان مع السلاجقة في معركة قصيرة خاسرة، قتل فيها السلاجقة عددًا كبيرًا من الألمان، وعبر عن ذلك أحد المؤرخين بقوله: إن السلاجقة قد أصابهم الملل في ذلك اليوم لكثرة ما قتلوا من الألمان[٢].

هكذا انتهت معركة ضورورليوم بتحطيم معظم قوات الجيش الألماني على أرض آسيا الصغرى، ذلك الجيش الذي قدره البعض بحوالي ٩٠٠ ألف[٣]، وقدره البعض الآخر بحوالي ٧٠ ألف[٤]، إذ هلك في هذه المعركة ٩/١٠ هذا الجيش، ولم يبق منه سوى ١/١٠ (أي ٧ آلاف)، وقتل في هذه المعركة كل الجنود والمشاة تقريبًا، ومن كان يوجد مع هذا القسم من الحجاج وعدد كبير من الفرسان، ومن استطاع الهرب التجأ إلى الجبال، فقام السلاجقة بمطاردتهم إلى هناك وقتلوا معظمهم، أما من أفلت من القتل فقد تعرض للموت نتيجة الجوع والعطش في هذه الصحراء، أو وقع في أسر السلاجقة، واستطاع كونراد الثالث مع عدد قليل من رجاله الهروب بصعوبة من الوقوع في أيدي السلاجقة، لدرجة أنه يمكن القول: بأن هذه المعركة كانت مذبحة للجيش الألماني في آسيا الصغرى[٥].

وعبر أحد المؤرخين عن هذه المعركة بقوله: «لقد كانت كارثة الجيش الألماني مفجعة، ولا يمكن أن نصف البؤس والتعاسة التي عبر هؤلاء عنها بالبكاء والنواح الشديد حسرة على هذا اليوم المشئوم»[٦]، وقال وليم الصوري: انهارت مكانة الألمان

---

(1)Annales Herbipolenses, p. 6.

(٢) ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل، ج٣، ص٢٥٣.

(3)Kinnamos, Deeds, p. 60.

ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل، ج٣، ص٢٥٣.

(4)Annales Palidenses, p. 82؛ Roger of Wendover, Flowers, I, p. 499.

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٧١.

(5)Annales Magdeburgenses, p. 188؛ Anonymi Auctoris Chronicon, 2, p. 111؛ Roger of Wendover, Flowers, I, p. 500؛ John of Salisbury, Historia Pontificalis, p. 55؛ Mills, Crusades, I, p. 379؛ Sybel, Crusades, p.61.

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٧٧-٢٧٨.

(6)Helmold, Chronicle, p. 174.

فلم يتبق من مجدهم السالف إلا أثرًا واه[1].

استولى السلاجقة بعد انتصارهم على معسكر الجيش الألماني بما فيه من ذهب وفضة وأموال وثياب وغير ذلك من ثروات، وامتلأت البلاد الإسلامية بغنائم الألمان لدرجة أنه قيل: إن قيمة الفضة-المعدن الذي يلي الذهب في الأهمية- أصبحت في ملطية مثل قيمة الرصاص[2].

لا ريب أن هذا الانتصار الرائع الذي قضى على أكثر من نصف قوات الحملة الصليبية الثانية[3]-وهي في بداية طريقها- لم يأت من فراغ؛ ذلك أن اتحاد المسلمين وتصميمهم على القضاء على هذه الحملة كان له الدور الأكبر في هزيمة الجيش الألماني، ثم جاء اختيار الألمان للطريق الذي يخترق منطقة صحراوية، ويعبر أراضي السلاجقة ليساعدهم في القضاء عليهم تمامًا[4]، هذا بالإضافة إلى تهور وقلة حذر الألمان، فعندما كانوا يسيرون في ضواحي ضورولیوم كانوا يتحركون وكلهم ثقة في أنهم سيحققون كل ما يرغبون فيه دون مشقة، وقد غاب عنهم أنهم في بلد عدو يتربص بهم الدوائر، ويتحين الفرصة للانقضاض عليهم، فضلاً عن قلة انضباطهم وعدم تنظيمهم وقلة معرفتهم بطرق آسيا الصغرى[5].

يضاف إلى ذلك مفاجئة السلاجقة لهم والتي أدت إلى إرباكهم وإعاقتهم عن القيام

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٧٨.

(٢) ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل، ج٣، ص٢٥٣-٢٥٤؛ الرهاوي المجهول، الحملتين الأولى والثانية، ص٨٠؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٦٢.

Belloc, Crusade, p. 245؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 286.

اسحق أرمله، الحروب الصليبية، ص١٢٥.

(٣) يرى البعض أن الجيش الألماني كان يزيد في عدده عن الجيش الفرنسي.

Helmold, Chronicle, p. 172.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٢١.

(4)Roger of Wendover, Flowers, I, p. 500؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 287. حسين مؤنس، رائد نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود، سيرة مؤمن صادق، (السعودية ١٩٨٧)، ص١٧٣؛ حسن عبد الوهاب، أثر العوامل الجغرافية، ص٣٠٢.

(5)John of Salisbury, Historia Pontificalis, p. 12؛ Sybel, Crusades, pp. 60-61؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 283.

بأية مقاومة؛ ذلك لأنهم «لم يكونوا يتوقعون أي شيء من هذا القبيل»[1].

ومهما يكن من أمر فقد أدى هذا الانتصار على الجيش الألماني الذي قال ابن الأثير عن قائده كونراد الثالث وقواته: «إنه قصد بلاد الإسلام وهو لا يشك في ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه وتوافر أمواله وعدده»[2]، إلى رفع الروح المعنوية للسلاجقة وحلفائهم في آسيا الصغرى، مما ساعد في القضاء على الجيش الفرنسي الذي جاء إلى أراضي هذا الإقليم بعد ذلك بقليل، فإذا كانت الهزيمة قد حلت بالجيش الألماني الذي يفوق في عدده الجيش الفرنسي، فإن السلاجقة أدركوا أنه من السهل هزيمة الفرنسيين وبدرجة أسرع، وبذلك كان لانتصار ضورووليوم أثر كبير على نتائج الحملة الصليبية الثانية بأسرها[3].

لاشك أن كونراد الثالث بعد هزيمة ضورووليوم أخذ يفكر بصورة أكثر واقعية، فإذا كان قد أعلن من قبل أنه سيتخذ هذا الطريق الذي سلكه مهما كانت صعوباته متحديًا هذه الصعوبات، ومستهينًا بمقاومة السلاجقة، فإن مواصلة السير في هذا الطريق بعد هذه الهزيمة قد أصبحت شيئًا غير منطقيًا، فشبح الموت يطارد حطام جيشه، وأمامه طرق مجهولة لا يعرف عنها أي شيء، وإذا حدث وواصل السير في هذا الطريق فإن النجاح لم يكن مضمونًا في ظل هذه الصعوبات، خاصة بعد انتصار السلاجقة، ومن ثم دعا الملك الألماني قادته للاجتماع لاتخاذ قرار بشأن مصير من بقى من الجيش الألماني.

ويصور أودو الصراع الداخلي الذي انتاب أفراد الجيش الألماني بين الواقع والواجب، فالواجب يحتم عليهم الاستمرار في طريقهم حتى ينجزوا قسمهم الذي قطعوه على أنفسهم، ولكن كيف يحدث ذلك بعد كل هذه الخسائر، وهم على هذه الحالة السيئة وأمامهم كل هذه الصعوبات التي أجبرتهم في النهاية على اتخاذ قرار الانسحاب الذي يخالف هدفهم المقدس، لكنه ربما يحمل في طياته بعض الأمل في

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٧٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٣.

(٣) سالم الحميده، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٠.

النجاة من الوقوع في براثن السلاجقة[١].

وبذلك انسحب الجيش الألماني إلى نيقية وهو على هذه الحالة، من الضعف واليأس، وبإدراك السلاجقة هذا الوضع الذي أضحى عليه الألمان ضاعفوا من هجماتهم عليهم، فخلال فترة انسحاب الجيش الألماني وحتى وصوله إلى نيقية كان هدفًا لهجوم السلاجقة، الذين لم يكتفوا بالهجوم على مؤخرته وإنما هاجموا المقدمة والوسط، وانقضوا على كل من حاول الخروج عن دائرة الجيش، مما أدى إلى سقوط عدد كبير من هؤلاء البؤساء فريسة للسلاجقة، بل وأصيب كونراد الثالث نفسه بسهمين من جراء هذا الهجوم، وقتل برنارد كونت بلوزيك Bernard Count of Plozeke، بعد أن عجز هو وفرسانه عن الدفاع عن مؤخرة الجيش[٢]، مما دفع أودو إلى القول: بأنه لا يستطيع أن يصف خسائر هذه الرحلة، وهكذا حتى وصلت فلول الألمان إلى نيقية في ٢ نوفمبر وهم يعانون سكرات الموت[٣].

لم تنته متاعب الألمان بوصولهم إلى نيقية؛ ذلك أنهم واجهوا صعوبات كبيرة في الحصول على الغذاء من هذه المدينة، وهنا يتهم أودو سكان نيقية بأنهم استغلوا حاجة الألمان الشديدة للطعام، وطلبوا مقابل إمدادهم به الحصول على أسلحة الجيش حتى يتم تجريده من أسلحته ويعود إلى الوطن[٤].

إلا أن هذا الاتهام ليس له أساس من الصحة، فإذا حدث ووجد الألمان صعوبة في الحصول على الغذاء من نيقية، فكان سبب ذلك هو وصولهم المفاجئ إلى المدينة الذي

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, p.93؛ Kinnamos, Deeds, p.79 Archer, Crusades, p.212؛ Brundage, Crusades, p.105.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, p.93-97؛ Annales Herbipolenses, p.6؛ Annales Magdeburgenses, p.188؛ Berry, Second Crusade, p.496؛ Oman, Art of War, I, p.245.

مونروند (مكسيموس)، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوه حرب الصليب، ترجمة/ مكسيموس مظلوم، (أورشليم ١٨٦٥)، ص٤٩-٥٠.

(3)Odo of Deuil, De Profectione, p.97؛ (Berry, Second Crusade, p.496؛Belloc,Crusade,P.245).

(4)Odo of Deuil, De Profectione, p.97.

أدى إلى زيادة الطلب على المواد الغذائية عن الموجود منها في المدينة، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار، ومع عدم توافر العملة معهم اللازمة لشراء الطعام بعد استيلاء السلاجقة على أموالهم، فقد اضطروا إلى بيع ما تبقى بحوزتهم من أسلحة للحصول عليه(١)، إضافة إلى ذلك فإن سكان نيقية لم تكن لديهم أية مصلحة في تجريد الجيش الألماني من أسلحته وعودته إلى بلاده.

إن خسائر الانسحاب وما قبله من هزيمة ضورولیوم كانتا فوق ما يمكن أن يحتمله الألمان الذين أدركوا مدى قوة السلاجقة، وأنه من الصعب هزيمتهم، وبهذا لم يكن متوقعًا منهم بعد كل ذلك وعند وصولهم إلى نيقية أن يعيدوا الكرة من جديد، ويسيروا عبر آسيا الصغرى، إذ اعتبروا مواصلة هذه الرحلة القاتلة مرة أخرى ضربًا من الجنون، عند ذلك قرر الألمان-الذين استجابوا من قبل لدعوة القديس برنارد رئيس دير كليرفو Bernard of Claivaux(٢) بكل حماسة، وتركوا مزارعهم ودورهم وذهبوا وراءه أينما ذهب، واشتعلت بداخلهم رغبة متأججة للمشاركة في الحملة الصليبية- العودة إلى الوطن، فعاد معظم من جاء إلى نيقية إلى ألمانيا يجرون أذيال الخيبة(٣).

لا غرو في أن عودة الغالبية العظمى من الجيش الألماني إلى وطنهم دون أن يخشوا ما يستعرضون له من توقيع قرار الحرمان عليهم، وما سيلحق بهم من خزي وعار بسبب عدم إتمام رحلتهم المقدسة وإنجاز قسمهم، إنما يدل على ما تعرضوا له من صعوبات وخسائر في آسيا الصغرى، جعلت كل ما سيلحق بهم من ذل وحرمان بسبب

---

(1)Chalandon, Les Comnenes, p.305.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن دور القديس برنارد في الدعوة للحملة الصليبية الثانية:

Odo of Deuil, De Profectione, p. 20-25؛ Annales Magdeburgenses, p. 188؛

Rowe, J.G., "The Origins of The Second Crusade: pope Eugenius III, Bernard of Clairvaux and Louis VII of France", in Gervers, M. (ed), The Second Crusade and Cistercians, (New York 1992), pp. 79-89؛

Riley-Smith, Crusades, pp. 94-95.

(3)Odo of Deuil, De Profectione, p. 97؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 305؛ Berry, Second Crusade, p. 496؛ Oman, Art of War, I, p. 245.

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٢٨٠؛ صلاح ضبيع، دور الألمان، ص ٨٧-٨٨.

عودتهم لا يساوي شيئًا إذا ما قورن بما حدث وما سيحدث لهم إذ قرروا السير مرة أخرى عبر آسيا الصغرى، ولكن عودتهم هذه لم تخل هي الأخرى من معاناة راح ضحيتها معظم هؤلاء البؤساء بسبب الجوع والمرض، وعندما وصلوا إلى القسطنطينية كانت قوتهم العسكرية قد تلاشت[1].

كان هذا هو مصير القسم الرئيسي من الجيش الألماني الذي كان تحت قيادة كونراد الثالث، وسار داخل المنطقة السلجوقية، لكن ماذا كان مصير القسم الثاني الذي كان تحت قيادة أوتو الفريزي واتخذ الطريق الساحلي؟، هل نجح في النجاة من الوقوع في أيدي السلاجقة، ووصل بأمان إلى الشرق أم لقي هو الآخر نفس المصير؟.

بالرغم من اتخاذ أفراد هذا القسم الطريق الساحلي إلا أن ثمة صعوبات واجهتهم وانتهت بالقضاء عليهم، وقد عبَّر أودو عن ذلك بقوله: «إنهم اتخذوا الطريق الأيمن ولكن طالعهم سوء الحظ في كل نقطة وزاوية فيه»[2].

ذلك أنهم اتخذوا أولًا طريق ساحل بحر إيجة، ثم تحولوا بعد ذلك إلى الداخل إلى فيلادلفيا بدلًا من السير عبر الساحل لمسافة طويلة، وعند هذه النقطة بدأت معاناتهم، فلم يجدوا أولًا القوارب اللازمة لعبور نهر الميندر، مما اضطرهم إلى عبوره على الأقدام، الأمر الذي أضعفهم وأنهك قواهم، وهم على هذه الحالة اتجهوا إلى لأودكيا عسى أن يستعيدوا قوتهم هناك، إلا أنهم وقعوا في كمين سلجوقي أدى إلى هلاك عدد كبير منهم[3]، ونتيجة لهذه الهزيمة قرر أوتو أن يعود للطريق الساحلي مرة أخرى، فسار على الساحل نحو أضاليا، إلا أن الألمان تعرضوا للعديد من الصعوبات في هذا الطريق فكانوا «يصارعون كل يوم الجوع والعطش والمشقة»، وقاموا بذبح ما بقى لديهم من الخيول والحيوانات التي كانت تحمل متاعهم ليتغذوا على لحومها ويشربوا دماءها، وعندما اكتشف السلاجقة حالتهم هذه قاموا بالهجوم عليهم، ولم يبد هؤلاء أي

---

(1)Annales Palidenses, p. 83؛ Berry, Second Crusade, p. 496؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 305.

(2)Odo ofDeuil, De Profectione, p. 83.

(3)Odo of Deuil, De Profectione, p. 113؛ Fletcher, Western Europe, 2, p. 380.

بردج، الحروب الصليبية، ص١٥١؛ماير، الحروب الصليبية، ص١٥٣.

مقاومة، لما كانوا عليه من ضعف وهوان، فتم القضاء عليهم جميعًا ولم ينج منهم سوى أوتو مع عدد قليل من رجاله، ووصلوا إلى أضاليا وهم في حالة شديدة من البؤس والإعياء، ونقلتهم بعد ذلك إحدى السفن إلى بلاد الشام[١].

على هذا النحو كان مصير هذا القسم من الجيش الألماني الذي لقى هو الآخر نهاية مخزية على أيدي السلاجقة، لتكتمل بذلك كارثة الجيش الألماني بقسميه في آسيا الصغرى.

هزيمة جيش لويس السابع في آسيا الصغرى:

انتهى أمر الجيش الألماني في آسيا الصغرى بهزيمة أوتو الفريزي ورجاله على يد السلاجقة، ولم يبق منه سوى بقايا هزيلة لا يرجى منها أي فائدة، فهل كان هذا أيضًا هو مصير الجيش الفرنسي الذي حاول بكل طريقة تجنب الاصطدام بالسلاجقة في آسيا الصغرى، أم أنه كان أوفر حظًا ونجح في الوصول إلى بلاد الشام بكامل قواته؟.

بعد عبور الجيش الفرنسي البسفور وصل إلى نيقية في بداية شهر نوفمبر سنة **١١٤٧**م، وفي هذه المدينة شعر الفرنسيون بالقلق، وتأثروا بشدة لما سمعوه عن الكارثة التي حلت بالجيش الألماني على أيدي السلاجقة، تلك الكارثة التي اضطرت كونراد الثالث، الذي رفض من قبل انتظار الفرنسيين في القسطنطينية[٢] قائلاً:«إن الفرنجة لا يمثلون شيئًا بالنسبة لنا، ونحن لن ننتظر أي شخص أيًّا كان»[٣]، إلى التخلي عن عناده وكبريائه حتى إنه أرسل إلى لويس السابع يستعطفه ويطلب منه العون والمساعدة[٤].

---

(1)Annales Herbipolenses, p. 5؛Stevenson, W.B., The Crusaders in The East (Cambridge 1968), p. 158.

ماير، الحروب الصليبية، ص**١٥٤**؛ سعيد عمران، الحروب الصليبية، ص**٨١**.

(**٢**) عن أسباب رفض كونراد الثالث انتظار لويس السابع:

Odo of Deuil, De Profectione, pp. 49–51؛ Grousset, Croisades, 2, p. 226.

Brehier, Croisades, p. 106.

(3)John of Salisbury, Historia Pontificalis, p. 54.

(4)Odo of Deuil, De Profectione, p. 91؛ Berry, Second Crusade, p. 496؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 304.

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج**٣**، ص**٢٨٠**.

وفي اللقاء الذي تم بين العاهلين الفرنسي والألماني قرر لويس السابع التراجع عن فكرة اتخاذ طريق الحملة الصليبية الأولى عبر آسيا الصغرى، وأن يتخذ بدلًا منه الطريق الساحلي الطويل على امتداد الساحل الغربي لآسيا الصغرى، (انظر الخريطة رقم ٣)، واتفق القائدان على أن ينتظر الملك الفرنسي الملك الألماني في مدينة لوباديون Lopadion[١]، حتى ينتهي من تنظيم وإمداد بقايا رجاله في نيقية ثم يلحق به إلى هناك[٢].

لكن لماذا تراجع لويس السابع عن رأيه في اتخاذ طريق الحملة الصليبية الأولى في آسيا الصغرى؟، وهل كان لهزيمة كونراد الثالث دورًا في ذلك؟.

مما لاشك فيه أن ما وقع لكونراد الثالث من هزيمة ساحقة على أيدي السلاجقة عند سلوكه هذا الطريق، كانت العامل الأساسي الذي دفع لويس السابع إلى اتخاذ الطريق الساحلي، هروبًا من الهجوم السلجوقي، وتجنبًا للمصير السيئ للجيش الألماني، وحتى يمكنه أيضًا الحصول على المؤن اللازمة للجيش من المدن البيزنطية على طول الساحل، فضلاً عن الإفادة من مساعدة الأسطول البيزنطي[٣].

ولكن لم تكتمل سعادة الألمان بمد يد العون والمساعدة لهم من قبل الفرنسيين، وكأن القدر أبى أن ينهي مأساتهم عند هذا الحد، ففي طريقهم إلى لوباديون تعرض الكثير منهم للقتل والسلب، مما دفع كونراد الثالث إلى أن يرسل إلى لويس السابع طالبًا منه إنقاذ رجاله، فأرسل إليهم فرقة عسكرية بقيادة إيفو كونت سواسون Ivo Count of Soisson قامت بحراستهم حتى وصلوا إلى هناك، وأنقذت فلولهم من الهلاك، لدرجة أنهم أخذوا يرددون بأنه لو لم يأت الكونت إليهم على جناح السرعة لكان قد

---

(١) لوباديون، حصن هام شمال غرب آسيا الصغرى على شاطئ نهر الرايناكوس Rhyndakos على بعد حوالي ٢٠ كم جنوب بحر مرمرة، ونقطة عسكرية هامة، ومدينة تجارية ثرية.

Ramsay, Historical Geography, p. 160؛ O.D.B., 2, p.1250.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, 97؛ John of Salisbury, Historia.p. 55.

(3)Grousset, L'Epopee, 168؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 305. Rousset, Croisades, p. 168؛ Bell, Mediaval Europe, p. 89؛ Oman, Art of War, I, p. 245..

باركر، الحروب الصليبية، ص٧٦.

قُضي عليهم جميعًا[1].

وفي مدينة لوباديون رأى لويس أن يواصل الجيش الفرنسي-بعد انضمام البقايا الألمانية إليه- سيره إلى أنطاكية عبر فيلادلفيا، وكان هذا طريقًا جيدًا، أقصر من الطريق الساحلي الذي اتخذه أوتو ورجاله، إلا أن مؤنه كانت قليلة ولكن في أيسيرون Esseron-مدينة بالقرب من لوباديون وهي المحطة الثانية التي وصل إليها الجيش في ١١ نوفمبر- تراجع الملك الفرنسي عن هذا القرار، وقرر أن يسير مقتربًا من الساحل بدلًا من الاتجاه إلى فيلادلفيا مباشرة، وذلك بناءًا على نصيحة كونراد الثالث، وللتغلب أيضًا على نقص المؤن، فقد نصحه الملك الألماني قائلاً: «يوجد طريقان مفتوحان أمامكم: أولهما أقصر ولكن موارده أقل، وثانيهما أطول، ولكن موارده أوفر، فمن الأفضل أن يعيشوا لمدة طويلة وسط الوفرة بدلًا من أن تهلكوا بسرعة وبخزي وسط الحاجة... لذلك فإنني أتوجه إليكم بنصيحتي لتسلكوا الطريق الساحلي، وتحافظوا على قوة فرسانكم لخدمة الرب حتى ولو جاءت هذه الخدمة متأخرة إلى حد ما»[2].

ويرى رنسيمان أنه ربما كان من أسباب ذلك التراجع هو معرفة لويس السابع بما حل لرجال أوتو من هزيمة على أيدي السلاجقة أثناء مرورهم بطريق فيلادلفيا[3].

على أي حال إذا كان الفرنسيون قد اتخذوا الطريق الساحلي هروبًا من الجوع، فإنهم عندما سلكوه واجهتهم صعوبات أخرى، ذلك أنه كان يعبر منطقة جبلية أعاقت سيرهم، وأدت إلى موت عدد كبير من الخيول وحيوانات الحمل التي انزلقت من أعلى الجبال، مما دفع أودو الذي شهد بعيني رأسه هذه الأحداث إلى القول: «لقد تكبدنا أول وأفدح خسائرنا بين تلك الجبال»، وأخذت خسائر الفرنسيين في التزايد حتى وصلوا إلى مدينة أدرامتيون Adramyttion[4].

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 97-99؛ Chalandon, Les Comnenes, pp. 305-306.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 103-105.

(٣) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٣٤-٤٣٥.

(4)Odo of Deuil, De Profectione, p. 107.

- ادرامتيون، هي (أدرميت الحالية)، تقع على الساحل الشمالي الغربي لآسيا الصغرى، حطمها تزاخاس وأعاد بنائها الكسيوس، وأصبحت قاعدة للدفاع ضد الهجوم السلجوقي. =

واصل الجيش الفرنسي زحفه على هذا الطريق متوجهًا نحو أفيسوس، حيث زادت معاناته في عبور المنحدرات الجبلية، فضلاً عن ذلك فإن مجاري السيول-التي يكثر عددها على هذا الطريق- قد أعاقت سيره بصورة كبيرة، وزاد من أثرها أن الوقت كان فصل الشتاء (نوفمبر)، وفيه فاضت المجاري بمياه الأمطار والثلوج فضلاً عن سرعة جريانها التي جعلت من الصعب على المشاة والخيول السباحة فيها.

وثمة صعوبة أخرى واجهت الجيش الفرنسي في هذا الطريق وهي الحصول على الغذاء؛ بسبب ما حل بالعديد من المدن في هذه المنطقة من دمار نتيجة الحروب والهجمات السلجوقية المستمرة، مما أدى إلى خراب هذه المدن وتعرضها للفقر، الأمر الذي أدى إلى رحيل سكانها عنها، وحتى تلك المدن التي لم يصيبها الخراب فإنها كانت فقيرة، وما بها من مؤن لا يكفي لسد حاجة الجيش الفرنسي[1].

هكذا اشتدت معاناة الفرنسيين، الأمر الذي أصاب العديد منهم باليأس والإحباط، ودفعهم إلى الامتناع عن مواصلة الرحلة برًا، وأن يلوذوا بأي سفينة يصادفونها دون الخوف من مخاطر الرحلة بحرًا، في حين قام البعض الآخر ممن لا يمتلكون الأموال لدفع أجر السفينة أو حتى لشراء الطعام-بعد أن فقدوا كل أموالهم في الحصول عليه من قبل- بالدخول في خدمة البيزنطيين، وبذلك دفعتهم المعاناة في آسيا الصغرى إلى التخلي عن هدفهم المقدس، واستمر بقية الجيش في طريقه حتى وصل إلى أفيسوس في منتصف ديسمبر[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما وقع لجيش كونراد الثالث الضخم من هزيمة على أيدي السلاجقة كانت فوق الاحتمال، وبذلك أصاب الملك الألماني المرض، وتحطمت

=

لمزيد من التفاصيل:

Ramsay, Historical Geography, pp. 114-115؛ O.D.B., I, p. 227.

(1)Odo of Deuil, De Profectione, p. 107؛ Berry, Second Crusade, p.497؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 306؛ Oman, Art of War, I, p. 244.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, p. 107؛ Berry, Second Crusade, p. 497؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 307.

سالم الحميده، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٢.

معنوياته، وشعر بالخزي والعار بعد أن أصبح تابعًا للملك الفرنسي، ليس هذا فحسب، بل إن الفرنسيين تجرأوا على الألمان، وراحوا يسخرون منهم، الأمر الذي دفع كونراد الثالث أن يترك الجيش عند أفيسوس، ويعود إلى القسطنطينية[١].

في أفيسوس وقع لويس السابع في خطأ كبير سوف يدرك فداحته بعد ذلك بقليل، وذلك عندما رفض الأخذ بنصائح مانويل الخاصة بتجنب الاشتباك مع السلاجقة، واللجوء إلى الحصون والمدن البيزنطية على امتداد الساحل، عندما حذره الإمبراطور من هجماتهم[٢].

ذلك أنه بعد أن دخل الفرنسيون وادي ديكيرفيون Decervion[٣]، ونصبوا خيامهم للاحتفال بعيد الميلاد، في الوقت الذي لم يتوقعوا فيه أي هجوم سلجوقي - بعد أن رفضوا تصديق نصائح مانويل- قام السلاجقة بهجوم مفاجئ عليهم، ويبدو أنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك الهجوم الخاطف اختبار قوة الجيش الفرنسي ومدى تنظيمه[٤].

ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع هجمات السلاجقة على الفرنسيين، تلك الهجمات التي كان يتخذها السلاجقة دائمًا كخطوة تمهيدية يهدفون من ورائها إرباك العدو وإضعافه قبل الاشتباك معه في معركة فاصلة، والتي حاول السلاجقة اتخاذ نهر الميندر مكانًا لها، وهو النهر الذي قال عنه نيقتاس الخونياتي: إنه كان من الصعب عبوره في أي وقت،

---

(1)Kinnamos, Deeds, pp. 70-71؛ Annales Palidenses, p. 83؛ Grousset, Croisades, 2, p. 240؛Belloc, Crusade, p. 245.؛

- يرى أودو أن سبب عودة كونراد الثالث إلى القسطنطينية هو حزنه لعدم رؤية مانويل فعاد إليها ليراه ويقضي الشتاء معه هناك.

Odo of Deuil, De Profectione, p. 109.

(٢) يبدو أن ما دفع لويس السابع إلى تجاهل نصائح مانويل هو رغبته في عدم إظهار أي خوف من السلاجقة، هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن يرغب في جعل مانويل صاحب فضل عليه.

Odo of Deuil, De Profectione, p. 109؛ Berry, Second Crusade, p. 498.

(٣) ديكيرفيون، وادي يقع في المنطقة المجاورة لافيسوس.

Odo of Deuil, De Profectione, p. 108, Note 9.

(4)Odo of Deuil, De Profectione, p. 109؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 309.

بردج، الحروب الصليبية، ص١٥٢.

ومن أي مكان لكثرة الدوامات المائية فيه[1]، وقد حاول السلاجقة الاستفادة من ذلك في إعاقة عبور الجيش الفرنسي واستعدوا للمعركة معه، فقاموا بتوزيع بعض قواتهم على ضفتي النهر لمنع عبور الفرنسيين، والبعض الآخر على المنحدرات الجبلية حول النهر لمهاجمة كل من يحاول اللجوء إليها والاختباء بداخلها، وكذلك تحصنوا في السهل للهجوم على الفرنسيين أثناء زحفهم، في الوقت الذي قام فيه رماة السهام السلاجقة بمضاعفة الهجوم على جناحي الجيش، وحاول لويس السابع الاشتباك بجيشه معهم أكثر من مرة، لكنه لم يستطع؛ بسبب أسلوبهم في القتال الذي يعتمد على الهجوم بقوة ثم الانسحاب بسرعة وبمهارة عالية، بحيث لا يعطون أي فرصة لعدوهم للرد على هجومهم.

وعندما حاول الفرنسيون عند وصولهم إلى النهر العبور وجدوا القوات السلجوقية تقف لهم بالمرصاد، عند ذلك طلب لويس من رجاله الاستعداد لخوض معركة مع السلاجقة لتأمين عبورهم، وألقي فيهم خطبة لإثارتهم ضد السلاجقة، حثهم فيها على الصمود والثبات أمام الهجوم السلجوقي، وحذرهم من تسرب الخوف إلى قلوبهم، وشجعهم على عبور النهر لتحقيق هدفهم المقدس، ونقل إليهم ثقته من أن ماءه سيكون هادئًا عند عبورهم، وعلى أثر ذلك حاول الفرنسيين عبور النهر وأسفر ذلك عن معركة قصيرة بين الطرفين، ولكن عندما وجد السلاجقة أن الجيش الفرنسي مُصِرٌّ على العبور انسحبوا إلى الوراء بعد أن انزلوا بقواته بعض الخسائر في الأرواح[2].

التجأ السلاجقة بعد انسحابهم إلى مدينة أنطاكية-بيسديا القريبة من النهر- مما جعل أودو يتهم مانويل بالخيانة؛ لأنه أوعز لحاكم المدينة وسكانها بإيواء السلاجقة، إلا أن أودو لم يكن محقًا في اتهامه هذا للإمبراطور[3]، ويبدو أن ما دفع سكان المدينة للقيام بذلك هو رغبتهم في الانتقام من الفرنسيين لما ارتكبوه من حوادث سلب ونهب على امتداد مسيرتهم، خاصة وأن مانويل كان قد حذر لويس السابع من انتقام السكان

(1)Choniates, Annales, p. 39.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 109-111؛ Choniates, Annales, pp. 39-41؛ Roger of Wendover, Flowers, I, p. 500؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 309.

بردج، الحروب الصليبية، ص١٥٢.

(٣) انظر ما سبق الفصل الثاني.

البيزنطيين بسبب حوادث عنف رجاله، يضاف إلى ذلك أن مدن آسيا الصغرى في ذلك الوقت الواقعة في وادي نهر الماندر كانت واقعة تحت الضغط السلجوقي المستمر[١]، وبهذا لم يكن في مقدور البيزنطيين التصدي للسلاجقة ومنعهم من اقتحام مدينتهم -إذا رغبوا-، فكان هؤلاء لا حول لهم ولا قوة مع السلاجقة، بل إنهم عملوا على شراء مسالمتهم لحماية أنفسهم، والابتعاد عن أي عمل من شأنه أن يثير غضب السلاجقة عليهم، وبذلك اضطر سكان أنطاكية - بيسديا- إلى إيواء السلاجقة.

على أن الأمر الذي ينبغي ملاحظته هو أنه بالرغم من انسحاب القوات السلجوقية إلى داخل أنطاكية-بيسديا- إلا أن السلاجقة ظلوا يمثلون خطرًا كبيرًا يخشاه الفرنسيون، ولهذا لم يجرؤ الفرنسيون على مهاجمة القوات السلجوقية في المدينة، ويرى أودو أن سبب ذلك هو أن الجيش الفرنسي لم تكن لديه الإمدادات الكافية من الغذاء إذا اضطر إلى حصار المدينة لفترة طويلة، وإذا حدث وقام بالهجوم عليها، فإنه لن يحصل على أي غنائم ذات جدوى من هذه المدينة الصغيرة الفقيرة، ومن ثم لم يفكر الفرنسيون في الهجوم عليها[٢]، بينما يعتقد بعض الباحثين أن سبب ذلك هو عدم امتلاك الجيش الفرنسي لآلات الحصار اللازمة للقيام بهذا الهجوم[٣].

لكن مدينة صغيرة كهذه كما ذكر أودو لم تكن بحاجة إلى آلات حصار ضخمة، فضلاً عن أنه كان بإمكان الفرنسيين بناء آلات حصار من الأشجار الموجودة حولهم، إلا أن الرأي الأكثر احتمالًا هو أن الفرنسيين خشوا أن تأتي إمدادات للسلاجقة المحاصرين، الأمر الذي يشجعهم على التصدي للفرنسيين، وعند ذلك تتم محاصرة الجيش الفرنسي من خارج وداخل المدينة بالقوات السلجوقية ويتم القضاء عليه.

ومهما يكن من أمر فإن الجيش الفرنسي لم يلبث أن واجه صعوبة جديدة بعد ذلك بقليل وذلك عند وصوله إلى مدينة لأودكيا، التي أسرع لويس السابع بالاتجاه إليها بسبب استمرار الهجوم السلجوقي على جيشه وقلة الغذاء، على أمل أن يستريح بها، ويزود جيشه بالمؤن اللازمة له، لكنه وجد هذه المدينة خاوية على عروشها بعد أن

---

(1)Vryonis, Decline, p. 152.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, p. 113.

(3)Grousset, Croisades, 2, p. 241؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 309.

هجرها سكانها، وأخذوا كل شيء يمكن الانتفاع به معهم[١].

ويرى أودو أن حاكم المدينة كان وراء إخلائها، وذلك إما خوفًا من انتقام الفرنسيين لما حل بقوات أوتو الفريزي عند مرورها بهذه المدينة، أو رغبة منه في حرمان الجيش الفرنسي من المواد الغذائية التي يعتمد على هذه المدينة في الحصول عليها لمواصلة الرحلة إلى أضاليا، تلك الرحلة التي كانت تستغرق **١٥** يومًا عبر منطقة جبلية خالية من أي مصدر من مصادر الغذاء، وبذلك يتم إضعافه مما يسهل للسلاجقة القضاء عليه[٢].

بينما يعتقد أومان Oman أن سبب ذلك هو رغبة هذا الحاكم في عدم استنزاف مخزونه خاصة بعد معرفته بأن السلاجقة في المنطقة المجاورة له، ينتظرون الجيش الفرنسي مما ينذر بالقضاء عليه[٣]، وربما يكون ما دفع هذا الحاكم أيضًا إلى القيام بذلك هو رغبته في الحفاظ على علاقاته مع جيرانه السلاجقة، خاصة في ظل وجود نوع من العلاقات المشتركة بين سكان المدن البيزنطية في آسيا الصغرى والسلاجقة[٤]، فإذا حدث وساعد هذا الحاكم الجيش الفرنسي سيجلب عليه نقمة السلاجقة، مما ينذر بالخطر عليه وعلى مدينته.

مع هذا النقص الشديد في المؤن رحل الجيش الفرنسي من لأودكيا متجهًا إلى أضاليا في رحلة شاقة عانى فيها الفرنسيون، ليس فقط من وعورة تضاريس الطريق، وإنما كان عليهم التصدي للهجوم السلجوقي الشديد، حتى يستطيعوا شق طريقهم عبر هذه الممرات الجبلية الوعرة، وزاد من معاناتهم ما رأوه من عظام من هلك من رجال أوتو الفريزي، على امتداد هذه الطريق، فاعتبروا ذلك نذيرًا بالمصير السيئ الذي ينتظرهم[٥].

على أي حال فمنذ خروج الفرنسيين من لأودكيا والسلاجقة يحيطون بهم، مما

---

(1)Oman, Art of War, I, p. 246؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 309.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 113-115.

(3)Oman, Art of War, I, p. 246.

(4)Magdalino, Manuel I Komnenos, p. 2.

(5)Odo of Deuil, De Profectione, p. 115؛ Berry, Second Crusade, p. 499. Chalandon, Les Comnenes, p. 310؛ Riley-Smith, Crusades, p. 101.

جعل لويس السابع يتوقع أنهم ينوون خوض معركة حاسمة ضد الجيش الفرنسي، ومن ثم قام بتنظيم قواته استعدادًا لتلك المعركة، فوضع على رأس المقدمة جوفري أف رانكون Geoffery of Rancon، وعمه أماديوس أف موريان Amadeus of Maurienne وتولى هو وحرسه حماية المؤخرة، وبعد يومين من رحيل الجيش الفرنسي من لأودكيا كان عليه عبور أحد الجبال-جبل كادموس Cadmos[1]-، وقد أمر الملك الفرنسي جوفري بأن يعسكر هو وقواته في أعلى الجبل؛ لحراسة أحد الممرات حتى يتم عبور بقية الجيش، وخصص لذلك العبور اليوم كاملاً، ولكن لسوء حظ الفرنسيين وصلت المقدمة إلى أعلى الجبل قبل انتهاء اليوم، وهنا رأى جوفري أنه من العبث الانتظار هناك فتجاهل أوامر لويس السابع بالبقاء عند القمة، ونزل هو وقواته إلى الوادي الخصب ليريحها من عناء الصعود، وبسبب البرد الشديد على قمة الجبل[2]، دون أن يعلم بقية الجيش بهذا التغيير، وعندما وصل الجزء الأوسط من الجيش إلى أعلى الجبل، ولم يجد المقدمة أصاب أفراده الارتباك، وتوقفوا للبحث عن المقدمة بينما كانت المؤخرة لا تزال في بداية صعود الجبل، وبذلك تجزأ الجيش الفرنسي وانقطع الاتصال بين قواته، وانتهز السلاجقة-الذين كانوا يراقبون تحركات عدوهم هذه الفرصة- وقاموا باحتلال الممرات الجبلية، واستعدوا للقضاء على الجزء المنعزل قبل أن تأتي المؤخرة، وأمطروهم بوابل من السهام من جميع الجهات، ثم أجبروهم على خوض القتال وهم على هذه الحالة من الارتباك والإرهاق، مما أدى إلى وقوع الفرنسيين فريسة سهلة في أيدي السلاجقة الذين أخذ كل واحد منهم يشجع الآخر على القتال، ويذكرون بعضهم البعض بأنهم استطاعوا منذ أيام قليلة القضاء على الجيش الألماني

---

(١) جبل كادموس هو جبل شديد الإنحدار يبعد عن لأودكيا ٥٢ ميلاً.

Walker, C.H., "Eleanor of Aquitaine and the Disaster at Cadmos Mountain on The Second Crusade", A.H.R., 55 (1949-1950), pp. 857-858.

(٢) يرى البعض أن الملكة اليانور زوجة لويس السابع هي المسئولة عن تجاهل المقدمة للأوامر الملكية حيث طلبت من جوفري نتيجة لشعورها بالبرد الهبوط للسهل ومن ثم كانت المسئولية عن كارثة الجيش الفرنسي في آسيا الصغرى، في حين ينفي البعض عن الملكة أي مسئولة في ذلك.

لمزيد من التفاصيل:

Walker, Eleanor of Aquitaine, pp. 857-861؛ Duggan, Crusades, p. 115.

الذي كان أضخم من الجيش الفرنسي دون أن ينالهم أي أذى، ووسط هذا الاضطراب سقط عدد كبير من الجنود والخيول وعربات البضائع أسفل المنحدر، وانهارت الصخور نتيجة ارتطام عربات البضائع بها، مما أدى إلى زيادة عدد القتلى في الجيش الفرنسي، ونتيجة لحالتهم السيئة زادت جرأة السلاجقة على قتالهم، وأحدثوا فيهم مذبحة كبيرة[١]. (انظر الشكل رقم ٢).

وعندما علم لويس بما وقع لجيشه أتى مسرعًا لإنقاذ ما تبقى من قواته، لكنه وصل بعد فوات الأوان، فقد هلك عدد كبير من الجيش الفرنسي، وأحاط السلاجقة بقواته وقتلوا الحرس الخاص به، ونجا هو من الوقوع في أيديهم بصعوبة، بعد أن لاذ بإحدى الصخور[٢].

لقد ساعد الحظ السلاجقة في إيقاع أكبر عدد من الخسائر بالفرنسيين في تلك المعركة، حيث ساعدهم الحظ أولًا بانقسام الجيش الفرنسي مما أدى إلى ارتباكه، وسهل عليهم القضاء عليه، ثم الاتجاه للجزء الآخر وهزيمته، وساعدهم الحظ أيضًا بطبيعة هذه المنطقة الجبلية الشاقة، فعندما ذهب أودو إلى قوات المقدمة وطلب منهم سرعة نجدة إخوانهم، أعاقت المرتفعات الجبلية والممرات الضيقة تقدم هؤلاء، فأعطت بذلك الفرصة للسلاجقة لإبادة هؤلاء البؤساء[٣].

مما سبق يمكن القول أن هزيمة كادموس كانت ضربة قاصمة للجيش الفرنسي، أنزلت به خسائر فادحة في الأرواح والخيول، وأعجزته عن القيام بأي مقاومة للسلاجقة بعد ذلك، وعبر أودو لسان حال الجيش الفرنسي عن حالتهم بعد هذه الهزيمة بقوله: «... قام التركمان بقتل الخيول... مع أنها كانت عند ذلك غير قادرة على الجري، وهكذا أصبح فرسان الفرنج الذين يرتدون الدروع يسيرون مشيًا على الأقدام،

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 115-117؛ Annales Herbipolenses, p. 5؛ John of Salisbury, Historia Pontificalis, p. 55؛ Roger of Wendover Flowers, p. 501؛ Oman, Art of War, I, pp. 246-247؛ Mills, Crusades, I, p. 381.

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٨٣-٢٨٤.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 117-121؛ Berry, Second Crusade, p. 499.

(3)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 117-119.

وقد تفرق كل واحد منهم عن الآخر، وأخذوا يلفظون أنفاسهم من أجسامهم العزلاء»[1].

هكذا فقد الجيش الفرنسي معظم خيوله وأسلحته ومخزونه، وسقط عدد كبير من قادته وأشرافه، فضلاً عن عدد ليس بقليل من الفرسان، وجزء كبير من المدنيين، ومن نجا من قتل أو أسر السلاجقة أصابته الجراح: فهناك من سملت أعينهم، أو بترت أيديهم، أو أذرعتهم من عند الكتف، وآخرون احترقت أقدامهم وبترت آذانهم وأنوفهم وشفاهم، فلم يعد منهم أي فائدة ترجى[2].

على هذا النحو كانت معركة كادموس نكبة حلت بالجيش الفرنسي، أدت إلى هلاك معظمه فوق أراضي آسيا الصغرى، وعبر أحد المؤرخين عن أثر هذه المعركة على الجيش الفرنسي بقوله: «لم ينج منه (الجيش الفرنسي) إلا عدد قليل، وانهار في هذا اليوم كبرياء وشجاعة الفرنسيين»[3].

ولنقتبس هنا عبارة أودو البالغة الدلالة للتعبير عن ذلك حيث قال: «ذبلت ورود فرنسا قبل أن تتفتح براعمها في دمشق»[4].

تابع الفرنسيون مسيرتهم بعد هزيمة كادموس هائمين على وجوههم متجهين إلى أضاليا، وهنا اشتدت المعاناة على ما تبقى لديهم من الخيول التي لم تذق طعم الحبوب أثناء رحلتها عبر آسيا الصغرى، وكانت تتغذى فقط على القليل من الحشائش والأعشاب التي تصادفها على طول طريقها، إلا أن السلاجقة قد اتبعوا سياستهم المألوفة في تدمير وحرق الحشائش والمحاصيل أمام الجيش الفرنسي حتى أضاليا، وبذلك لم تجد الخيول ما يمكن أن تتغذى عليه، فمات الكثير منها، فضلاً عن ذلك فقد عانى بقية الجيش من الجوع الشديد، مما أدى إلى انهيار وحدة الجيش، وتدمير فعاليته،

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, p. 119.

(2)Annales Herbipolenses, p. 5؛ Oman, Art of War, I, p. 245.

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٨٤.

(3)Roger of Wendover, Flowers, I, p. 501.

(4)Odo of Deuil, De Profectione, p. 119.

(إسحاق عبيد، روما وبيزنطة، ص٢٠٢-٢٠٣).

وموت عدد كبير منه، وفي ظل هذه الظروف لم يكتف السلاجقة بذلك، بل ضاعفوا هجماتهم على الجيش الفرنسي، وهكذا استمرت خسائر الفرنسيين في التزايد حتى وصلوا إلى أضاليا في ٢٠ يناير[١].

إذا كان الفرنسيون اعتقدوا أنهم عندما يصلون إلى أضاليا سوف يستعيدون قوتهم ويحصلون على الطعام الذي كانوا في أمس الحاجة إليه، فإن شيئًا من ذلك لم يحدث، فالمؤن التي حصلوا عليها من هذه المدينة كانت قليلة للغاية، ومرتفعة الأسعار، علاوة على ذلك لم يتوفر العلف لخيولهم التي كانت تموت جوعًا، في الوقت الذي لم يكن في مقدورهم إخراجها لترعى في السهل المحيط بالمدينة، وذلك لتعرض المنطقة المحيطة بأضاليا في ذلك الوقت للتهديد السلجوقي[٢].

وفي هذا الصدد يتهم أودو سكان أضاليا بأنهم كانوا لا يرغبون في تقديم الأعلاف لخيول الفرنسيين[٣]، لكن يبدو أن سبب ذلك كان يرجع إلى طبيعة هذه المدينة التي تقع في إقليم قروي فقير يتعرض باستمرار للهجوم السلجوقي، الذي جعل سكان هذه المدينة لا يستطيعون زراعة حقولهم، بل إنهم كانوا يحصلون على بعض احتياجاتهم بالسفن عن طريق البحر، فضلاً عن أن ما كان لدى المدينة من مخزون من المؤن قد تناقص بشكل كبير، بعد أن زودت أتباع أوتو الفريزي منذ قليل باحتياجاتهم[٤].

على أي حال ترتب على هذه المعاناة الشديدة أن قرر لويس السابع الرحيل من أضاليا، وبعد عدة مناقشات مع قادته وحاكم المدينة، قرر اتخاذ الطريق البحري بدلًا من مواصلة السير برًا عبر آسيا الصغرى إلى بلاد الشام.

إنه لمن الغريب حقًا أن يتراجع الملك الفرنسي عن مواصلة رحلته على هذا الطريق عبر آسيا الصغرى، وهو الطريق الذي قال عنه لنبلائه في أضاليا: «دعونا نتبع الطريق

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 125-127-129؛ Oman, Art of War, I. p. 248؛ Mills, Crusades, p. 282؛ Finlay, Hist. Greece, 3, p. 168..

(2)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 129-131؛ Berry, Second Crusade, p. 501؛ Riley-Smith, Crusades, p. 101؛ Vryonis, Decline, pp. 151-152.

(3)Odo of Deuil, De Profectione, p. 219.

(4)Chalandon, Les Comnenes, p. 313؛ Vryonis, Decline, p. 152.

رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٣٩.

الذي سار عليه آباؤنا بدافع من حماستهم التي ليس لها مثيل، والتي جعلتهم يحققون السيادة على الأرض والمجد في السماء»[1]، خاصة وأنه لم يتبق له في رحلته سوى مسافة قليلة، ويصل بعدها إلى بلاد الشام.

مما لا شك فيه أن السبب وراء تراجع لويس السابع عن مواصلة رحلته برًا يكمن في الصعوبات التي لقيها جيشه أثناء رحلته في آسيا الصغرى، وأدت إلى القضاء على معظمه، وسيطرت بذكرياتها الدامية على فكره، وأصابته باليأس والإحباط مما اضطره إلى عدم المجازفة مرة أخرى بمواصلة رحلته على هذا الطريق الذي يحمل له ولبقايا جيشه الهلاك[2].

ولحسن الحظ أن جاء على لسان القادة الفرنسيين أسباب اختيار الطريق البحري، وذلك عندما حاول هؤلاء إقناع لويس السابع باتباعه الأمر الذي يصور حالة الجيش الفرنسي بعدما حل به من كوارث في آسيا الصغرى، وعبر أودو عن ذلك بقوله: «... لكن ينبغي على الفارس الحكيم أن لا يقدم إلا على ما هو ممكن فقط، وبما أنهم ألقوا سلاحهم، فإن جميع الفرسان انحط وضعهم في هذه الأيام إلى جنود مشاة، كذلك تعرض العديد من الأشراف لنفس المصير، هذا فارس لا يستطيع شراء الخيول، وآخر لا يجد خيول معروضة للبيع، وقد علموا من السكان المحليين أن الرحلة إلى أنطاكية تستغرق ثلاثة أيام بتموين جيد، وأيام آمنة من ميناء إلى آخر لكن الرحلة برًا تستغرق أربعين يومًا، وتعترضها العراقيل ومواجهة الأعداء والقحط، لذلك فإنهم يرغبون في ركوب البحر كما يفعل المشاة الذين انعدمت شجاعتهم بسبب التعب، وانعدام المال والطعام»[3].

وقد طلب لويس السابع من حاكم أضاليا إعداد أسطول لنقل الفرنسيين إلى أنطاكية، وأثناء فترة انتظار الفرنسيين تجهيز الأسطول استغل السلاجقة حالة الضعف التي أضحوا عليها وعدم وجود خيول لديهم وقاموا بالهجوم عليهم، كما انتهز سكان المدينة فرصة قرب رحيل الفرنسيين، وعملوا على استنزاف ما تبقى معهم من أموال،

(1)Odo of Deuil, De Profectione, p. 131.

(2)Grousset, Croisades, 2, p. 243؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 313.

(3)Odo of Deuil, De Profectione, p. 131.

فباعوا لهم ما احتاجوا إليه بأسعار مرتفعة للغاية، مما دفع أودو إلى القول:«إنني اعتقد حقًا بأننا قد دفعنا في هذه المدينة ثمنًا أغلى مما دفعناه في كافة الأزمات التي واجهتنا في رحلتنا بأكملها وذلك بسبب تأخيرنا»(١).

وبالرغم مما تنطوي عليه هذه العبارة من المبالغة إلا أنها توضح استمرار معاناة الفرنسيين في أضاليا، والتي لم تنته بوصول السفن إليهم، إذ كانت أعدادها غير كافية لنقل جميع الفرنسيين، كما أن تكلفة النقل (٤ ماركات) كانت تفوق إمكانات عدد كبير منهم، وبذلك رحل لويس السابع مع قادته الأساسيين، وترك بقية الجيش في أضاليا يواجه مصيره(٢).

لكن لماذا أصر لويس السابع على مواصلة الرحلة بحرًا عندما وصلت السفن ووجد عددها غير كاف لنقل جيشه؟، وهل كان واجب القائد نحو جيشه أن يتركه وقت الضيق ويهرب؟!، لماذا لم يحاول الملك الفرنسي إعادة حساباته من جديد ويسلك الطريق البري ويكون مصيره ومصير جيشه واحدًا بدلًا من أن يترك جيشه للأقدار تطوح به كيفما تشاء؟، ألم يفكر في مصير هؤلاء البؤساء الذين فقدوا أموالهم وأسلحتهم وخيولهم وأصابهم المرض والإحباط فيما سيتعرضون له بعد رحيله؟، وهل صعوبة إتمام الرحلة برًا عبر آسيا الصغرى هي التي دفعته لأن يقوم بهذا العمل؟ الذي دفع أحد الباحثين إلى اتهامه بالسلبية في كل مواقفه ومعاركه مع السلاجقة، وأنه كان مستعدًا لقبول المحن والاستسلام في أي وقت، معتقدًا أن الواجب المقدس يفرض على الحجاج ذلك في سبيل رحلتهم المقدسة(٣).

في الواقع أن إلقاء اللوم كله على لويس السابع فيه شيء من التجني عليه؛ ذلك لأن الكارثة التي حلت بجيشه في آسيا الصغرى كانت فوق كل احتمال، فما واجهه الجيش الفرنسي من صعوبات خلال رحلته السابقة كانت تحتم على أي قائد أن يتخذ موقفه

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 133-135؛(Chalandon, Les Comnenes, p. 314).

(2)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 135-139؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 314. Riley-Smith, Crusades, p. 101؛ Stevenson, Crusaders, p. 159.

(3)Crabois, Crusade of King Louis, pp. 98-99.

خوفًا من تكرار المعاناة مرة أخرى، وكيف كان له أن يتراجع عن قرار السير بحرًا، ويسير عبر آسيا الصغرى بهذه القوات الهزيلة المنهكة، التي لا تملك شيئًا يمكن أن تدافع به عن نفسها، وتواجه عدوًا يفوقها عددًا وعدة، من هنا كان إصرار لويس السابع على الرحيل بحرًا هو الحل الوحيد أمامه لتجنب مخاطر هذه الرحلة الانتحارية عبر آسيا الصغرى مرة أخرى.

ويبدو أن الملك الفرنسي قد شعر بأنه قد اتخذ الإجراءات اللازمة من أجل راحة وتأمين الفرنسيين الذين تركهم في أضاليا إذ ترك لحاكم المدينة ٥٠٠ مارك لمساعدة الذين يرغبون في الرحيل برًا، وتقديم حامية عسكرية لهم تقودهم بأمان إلى طرسوس، وأما الذين لا يستطيعون ذلك فقد طلب من حاكم أضاليا أن يسمح لهم بدخول المدينة وأن يعتني بأمرهم حتى تتوفر وسيلة لنقلهم، وعين اثنين من قادته للإشراف على تنفيذ هذا الاتفاق، والاهتمام بأمر هؤلاء والدفاع عنهم(١).

أما عن مصير هؤلاء الذين تركهم لويس السابع خلفه في أضاليا، فيمكن القول: بأنه إذا كان الفرنسيون قد تعرضوا حتى ذلك الوقت للعديد من الصعوبات في أضاليا، فإن ذلك لا يقارن بما وقع لهم بعد رحيل الملك الفرنسي عنهم، ففي اليوم التالي من رحيله، وعندما علم السلاجقة بذلك قاموا بالهجوم عليهم، مما دفعهم إلى أن يطلبوا من حاكم المدينة تنفيذ اتفاقه مع لويس السابع، لكنه ماطلهم وطلب منهم الانتظار، وزادت معاناتهم عندما رحل نواب الملك الفرنسي-مقتدين بسيدهم- فاستغل السلاجقة هذه الفرصة وضاعفوا من هجماتهم عليهم، وقتلوا عددًا كبيرًا منهم، هذا بالإضافة إلى من قتله الجوع، بعد أن دفعوا كل ما كان لديهم من أموال في شراء الطعام، ومن قتله المرض نتيجةانتشار الوباء بسبب تعفن الجثث، عند ذلك قرر هؤلاء الرحيل من أضاليا عسى أن يجدوا مخرجًا لهم من الموت المحقق فيها(٢).

---

(1)Odo of Deuil, De Profectione, p. 137؛ Berry, Second Crusade, pp. 501-502؛ Chalandon, Les Comnenes, p. 314.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, pp. 139-141؛ Grousset, Croisades, 2, pp. 244-245؛ Berry, Second Crusade, p. 503؛ Rousset, Croisades, p.179؛ Mills, Crusades, 2, p.383.

ويرى دوجان Duggan أن الذي دفع هؤلاء-أيضًا- إلى الرحيل هو أنهم علموا بأن حاكم المدينة قد عزم على بيعهم في سوق الرقيق للمسلمين فهربوا نجاة بأنفسهم[١]،ورحلوا برًا عبر آسيا الصغرى دون قادة أو أموال أو أسلحة أو إمدادات أو حتى مرشدين، فتعرضوا لهجوم السلاجقة الذين قضوا عليهم جميعًا، ولم يصل منهم سوى حفنة قليلة إلى بلاد الشام[٢].

على هذا النحو كان مصير الجيش الفرنسي في آسيا الصغرى، فبالرغم من اتخاذه الطريق الساحلي، خشية أن يلقى نفسه مصير الألمان إلا أنه هو الآخر قد تكبد خسائر فادحة أثناء عبوره آسيا الصغرى، بل لقد ندم لويس السابع نفسه على اختياره هذا الطريق بقوله: «ليغفر الرب للإمبراطور الألماني، ذلك أن رغبتنا في تجنب حظه العاثر، ثم استجابتنا لنصيحته التي تنقصها الخبرة واتباعها هو الذي أوقعنا في هذه الشدائد والصعوبات المشئومة»[٣].

فكانت رحلته عبر آسيا الصغرى شاقة وبطيئة، تعرض خلالها الفرنسيون للهجوم السلجوقي المستمر، هذا بالإضافة إلى الجوع والعطش وبرودة الطقس وموت الخيول وحيوانات الحمل، كما أن الجبال الذي تسلقوها والأنهار التي عبروها زادت من خسائرهم في الأرواح التي تكبدوها على أيدي السلاجقة، الأمر الذي أدى إلى تحول الجيش الفرنسي إلى بقايا هزيلة، بحيث لم يصل منه إلى بلاد الشام سوى فلول أنهكها الجوع والجهد[٤]، وعبر أحد الباحثين عن ذلك بقوله: إن كارثة الجيش الفرنسي في آسيا الصغرى كانت تساوي أو تزيد على كارثة حملة سنة **١١٠١م**[٥].

مما سبق يتضح ما وقع لقوات الحملة الصليبية الثانية الذي عبر وليم الصوري عن ضخامتها قائلاً: «إنه لم يحدث قط أن كان ثم جيش يكافئ هذا الجيش الزاحف في

---

(1)Duggan, Crusades, p. 116.

(2)Odo of Deuil, De Profectione, p. 114؛ Duggan, Crusades, p. 315؛ Brundage, Crusades, p. 113.

(3)Odo of Deuil, De Profectione, p. 137.

(4)Brundage, Crusades, p.113؛ Rousset, Croisades, p. 179؛ Mills, Crusades, I, p.282؛ Magdalino, Manuel I Komnenos, p.51

(5)Fletcher, Western Europe, 2, p. 381.

كثافته وكثرة رجاله، حتى قيل إن خيالته وحدها تغطي سطح البلد كله ولا تكفيهم مياه أكبر الأنهار للشرب، ولا تسد جوعهم وتشبع بطونهم أوفر الحقول إنتاجًا»[١]، في آسيا الصغرى من صعوبات الأمر الذي جعل من المستحيل على هذه الحملة-بعد أن فقدت معظم قواتها- أن تستطيع تحقيق الهدف الذي جاءت من أجله إلى الشرق، وهو استرداد إمارة الرها الصليبية، أو حتى النجاح في تقديم يد العون والمساعدة لصليبي الشرق[٢]. بل إنه في الاجتماع الذي عقد في عكا بين قادة هذه الحملة وصليبي الشرق لم تتم الإشارة إلى هذا الأمر على الإطلاق، وتم-على نحو غير متوقع- اتخاذ قرار بالهجوم على دمشق، الذي كان حاكمها معين الدين أنر، الحليف الوحيد لمملكة بيت المقدس الصليبية[٣].

هكذا تتابعت الأحداث وفشلت الحملة الصليبية الثانية أمام أسوار دمشق، عندئذ رحل كونراد الثالث وتبعه لويس السابع مع ما تبقى من رجالهما دون أن ينجزا أي عمل مشرف، أو يحققا أي هدف من وراء قيامهما بهذه الحملة[٤]، وعبر وليم الصوري عن ذلك بقوله: «... لكن لازمهم سوء الطالع وشؤم النذير كما لو كانوا قد بدءوا سفرهم على غير رضى من رب غاضب عليهم، فعاقبهم على خطايا الإنسان، ولم يتيسر لهما إنجاز أي شيء يرضيه طوال رحلة حجهم هذه، بل إنهم زادوا من شقاء الذين جاءوا

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٧٠-٢٧١.

(2)Riley-Smith, Crusades, p. 101؛ Brehier, Croisades, p. 107. Lamb,Crusades, p. 26؛ Wise, Wars, p. 22.

(٣) لمزيد من التفاصيل حول الهجوم على دمشق والحملة الصليبية في بلاد الشام:
ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص٢٩٨-٣٠٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٣-٣٥٤؛ أبو شامة، الروضتين، ج١، ص١٨٥-١٩١؛ قتيبة الشهابي، صمود دمشق أمام الحملات الصليبية مستخرجة من نصوص المؤرخين العرب والأجانب، (دمشق ١٩٩٨)، ص٥٩؛ صلاح ضبيع، دور الألمان، ص١١٦-١٣١.

(4)Chronico Mauriniacensi, p. 88؛ Chronico Ecclesiae, p. 216. Annales Magdeburgenses, p. 188؛ William of Newburgh, English Affairs, I, p. 95؛ Gervase of Canterbury, Historical Warks, ed Stubb, W., R.S., 73, (London 1879-1880), p. 137.

لخدمتهم، ومد يد الإنقاذ لهم»[1].

وكان وليم الصوري محقًا في ذلك، فقد جاءت هذه الحملة لمساعدة صليبي الشرق، إلا أن فشلها أدى الى استهانة المسلمين بقوة الصليبيين، الأمر الذي شجعهم (المسلمين) على القيام بالهجوم عليهم، ومن ثم أخذوا في مهاجمة ما جاورهم من إمارات وممتلكات صليبية، واسترداد ما سبق أن استولى عليه الصليبيون، وبهذا كانت هذه الحملة الصليبية نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية بصفة عامة، وصليبي الشرق بصفة خاصة[2].

على أي حال يمكن القول بأن قائدي هذه الحملة قد حكما عليها بالفشل منذ البداية؛ إذ رفضا اتخاذ الطريق البحري السهل للوصول إلى الشرق، واختارا-بدون تعقل- الطريق البري الصعب بدلًا منه دون أن يتعظا بما تعرضت له الحملة الصليبية الأولى في آسيا الصغرى من عقبات، وما تلاها من إبادة لحملة سنة ١١٠١م في هذا الإقليم، وبذلك وضعا جيشهما تحت رحمة السلاجقة وقدما لهم فرصة ذهبية للقضاء على هذين الجيشين[3].

وبذلك فشلت الحملة الصليبية الثانية بالرغم مما توفر لها من أسباب النجاح من قيادة رائعة، فلأول مرة يشارك الملوك بأنفسهم في حملة صليبية، هذا بالإضافة إلى الأموال الضخمة التي أنفقت في إعداد هذه الجيوش وتسليحها[4]، الأمر الذي يوضح الدور الذي لعبه إقليم آسيا الصغرى في فشل هذه الحملة من ناحية، وحماية الشرق الإسلامي من جيوشها الجرارة من ناحية أخرى، وما كان سيترتب على وصولها بكامل

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٩٦.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٤٩٥-٤٩٦؛ عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب تجارية- ثقافية- صليبية، ترجمة/ فيليب صابر سيف، (القاهرة ١٩٧٢)، ص٦٠؛ بسام العسلي، الأيام الحاسمة، ص٧٣.

(3)Chronico Mauriniacensi, p. 88.

سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج١، ص٤٥٢-٤٥٣.

(4)Chronico Mauriniacensi, pp. 88; Gervase of Canterbury, Historical Warks, p. 137.

- السيد الباز، الحروب الصليبية، ج١، ص٥٤٦.

قواتها من نتائج خطيرة، عبر عنها السلطان مسعود في رسالته للحكام المسلمين عندما طلب مساعدتهم للتصدي لهذه القوات، وذكر ذلك وليم الصوري بقوله: «... لو تمكنت هذه الجيوش الضخمة المسلحة من المرور بأراضيه (السلطان مسعود) دون أن تلقى مقاومة، فإنها لابد وأن تخضع المشرق كله لسيطرتها بقوة السلاح»[1].

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٧٢.

نهاية جيش فردريك بربروسا في آسيا الصغرى:

«إذا أردت أن أتحدث عن المضايقات والاضطهادات والجوع والعطش والمكر والخداع التي تحملها الجيش الألماني ليل نهار بلا انقطاع في أراضي الأتراك من أجل المسيح... لما استطعت الحديث عنها، ولو كنت أتقن لغات البشر والملائكة جميعًا... ولو كان الشهير هوميروس، والفصيح لوكانوس، وشاعر مانتوا نفسه (فيرجيل) على قيد الحياة وأرادوا وصف ما عانيناه من مشاق لوضعوا أيديهم على أفواههم وصمتوا»[1].

بهذه العبارة البالغة الدلالة عبر انسبرت عن الصعوبات التي واجهها الجيش الألماني في آسيا الصغرى، ذلك الجيش الضخم الذي شهد نهايته المفجعة في ذلك الإقليم، تلك النهاية التي وضع قائده فردريك بدايتها باختياره الطريق البري المشئوم وتفضيله على الطريق البحري ليكون طريقًا لحملته للوصول إلى الشرق.

لكن ما هو الدافع الذي جعل فردريك يسلك الطريق البري بالرغم من أن بعض رجال دولته اعترضوا على ذلك، ودعوا إلى حملة تسلك الطريق البحري بدلًا من اجتياز جبال ووديان وعره؟[2]، الواقع أن فردريك لم يكن يجهل صعوبات الطريق البري، الأمر الذي دفعه إلى الاستعداد التام قبل أن يسلك ذلك الطريق سواء بإرسال السفراء إلى البلاد التي سيمر بها لتأمين عبور جيشه، أو بتنظيم هذا الجيش على أحسن ما يكون حتى يجنب نفسه وجيشه ما وقع للحملة الصليبية الثانية من عقبات في ذلك الطريق[3]، ولكن يبدو أن ما دفع الإمبراطور الألماني إلى اتخاذ ذلك الطريق هو ضخامة جيشه، إذا رأى أنه من السهل أن ينقل هذا الجيش برًا بالتفاوض مع حكام البلاد التي سيمر بها، بينما كان من الصعب إعداد أسطول لنقل هذا الحشد الذي يشكل ضغطًا كبيرًا على أي

---

(1)Ansbert, Historia, pp. 88-89؛ (Magnus of Reichersberg, Chronica, p. 513).

(2)Ansbert, Historia, p. 13.

(٣) لمزيد من التفاصيل حول استعدادات فردريك:

Johnson, Crusades, p. 91؛ Pacaut, Frederick Barbarossa, p. 202؛ Riley-Smith, Crusades, p. 202.

حامد زيان، فردريك بربروسا، ص٢٢.

ميناء، وربما كان سبب ذلك أيضًا هو اعتقاده أن الطريق البري أقل خطورة من ركوب البحر[1]، وأهم من هذا كله أن سلاجقة الروم-الذين شكلوا العقبة الرئيسية لأي حملة صليبية اجتازت هذا الطريق حيث قضوا على بعضها وأضعفوا البعض الآخر- كانوا أصدقاء له، وعلى هذا الأساس انتهز فردريك سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م)، عندما كان يستعد للمشاركة في الحملة الصليبية، الفرصة لإحياء علاقات الصداقة القديمة، وأرسل جودفري فون ويزنباخ Godfrey Von Wiesenbach إلى قليج أرسلان الثاني يخبره بأمر حملته، ويطلب منه تسهيل عبور الجيش الألماني عبر أراضيه، فوافق السلطان السلجوقي على طلبه وأرسل له سفارة بصحبة جودفري وبرئاسة توكيلي Tokili محملة بالهدايا-كانت تتألف من ١٠٠٠ رجل و٥٠٠ حصان- أكدت موافقته، ووعدت بالمرور الآمن للجيش الألماني وتقديم المؤن، وكل ما يحتاج إليه من مساعدات أثناء عبوره أراضيه[2].

على هذا النحو اطمأن قلب فردريك من ناحية سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ولم يكن يتوقع على الإطلاق ما وقع له ولجيشه من صعوبات في هذا الإقليم، تلك الصعوبات التي بدأت بدخول الجيش الألماني آسيا الصغرى في ربيع أول سنة (٥٨٥/٤ إبريل سنة ١١٨٩م)، حيث قامت جماعات من البيزنطيين بالهجوم عليه بعد عبوره أحد الأنهار الذي وجد صعوبة كبيرة في اجتيازه بسبب ارتفاع فيضانه، وفقد نتيجة لذلك عددًا من رجاله، وبالرغم من تصدي الألمان لهذه الجماعات البيزنطية إلا أنهم ظلوا يطاردونهم حتى قرب مدينة فيلادلفيا[3]. (انظر الخريطة رقم ٤).

---

(1)Vinsovfs, Itinerary of Richard I, p. 92؛ Johnson, Crusades, p. 91؛ Pacaut, Frederick Barbarossa, p. 201؛Munz, Frederick Barbarossa, p. 388.

(2)Ansbert, Hsitoria, p. 67؛ Johnson, Crusades, p. 91؛ Cahen, Selgukides, Turcomans et Allemands, pp. 26-27.

(3)Ansbert, Historia, p. 72.

- يتهم انسبرت هنا البيزنطيين بالخيانة وأنهم لم يلتزموا بالإتفاقية المعقودة بين إسحاق وفردريك، ولكن هذه الجماعات التي تحدث عنها انسبرت وقامت بالهجوم على الألمان كانت جماعات من اللصوص وقطاع الطرق التي لم تكن تلتزم بأي اتفاق أو تخضع لسلطة حكام المدن وهذا ما أكده صاحب تاريخ الحجاج. =

هذا بالإضافة إلى أن الجيش الألماني عانى من صعوبة الحصول على المواد الغذائية عند وصوله إلى مدينة فيلادلفيا، التي رفض سكانها أن يبيعوا للألمان أي مؤن، فقاموا بالهجوم على الحقول ونهبوا المحاصيل، مما أدى إلى نشوب بعض المصادمات مع سكان المدينة انتهت برحيل الجيش الألماني عنها، وفي أثناء ذلك قام سكانها بمهاجمة مؤخرة الجيش[1]؛ وربما كان سبب ذلك هو رغبتهم في الانتقام لما أحدثه الألمان من سلب ونهب في مدينتهم.

على أي حال إذا كان الجيش الألماني قد تعرض لبعض الصعوبات أثناء اجتيازه المنطقة البيزنطية في آسيا الصغرى، إلا أن ذلك كله لا يساوي شيئًا إذا ما قورن بما سيواجهه من عقبات بعد ذلك، والتي بدأت بدخوله منطقة الحدود بين الممتلكات البيزنطية والسلجوقية في آسيا الصغرى التي كانت تتعرض باستمرار لنهب القبائل التركمانية (الأوج)[2]، التي قامت بمهاجمة الجيش الألماني عند وصوله إلى هذه المنطقة، هذا بالإضافة إلى أن الطريق الذي عبره الجيش الألماني حتى مدينة تيروبوليس (الصغرى) (Tripolis (Minor)–التي وصل إليها في **٢٣** إبريل[3]– كان يعبر منطقة

=

Ansbert, Historia, p. 72؛ Historia Peregrinorum, p. 153.

(1)Ansbert, Historia, pp. 73-74؛ Historia Peregrinorum, pp. 154-155؛ Choniates, Annales, p. 226.

(٢) التركمان الأوج، أطلقت المصادر العربية والسريانية على القبائل التركمانية الموجودة على الحدود البيزنطية السلجوقية اسم "أوج" أي رجال الحدود، أما المصادر البيزنطية فقد أطلقت عليهم اسم تركمان Turkomanoi، في حين أطلق عليهم اللاتين اسم "أتراك البرية Turcisive أو البدو Bedewini، وأرسلت الدولة السلجوقية هؤلاء التركمان إلى هذه المناطق الحدودية للدفاع ضد الدولة البيزنطية ومواصلة الجهاد الإسلامي ضد المسيحيين، وبذلك نقلتهم بعيدًا عن أملاكها وحققت هدف الجهاد، وكانت هذه القبائل التركمانية لا تعرف حياة الاستقرار وإنما اتسمت حياتها بالحركة والإنتقال".

لمزيد من التفاصيل:

Historia Peregrinorum, p. 155؛ Vryonis, Decline, pp. 185-193. Idem, Nomadization and Islamization, pp. 43-71؛ Cahen, Per-Ottoman Turkey, pp. 149-150؛ Wittek, Deux Chapitres, p. 297.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج**١**، ص**٣٢٨**.

(٣) تيروبوليس، تقع غرب آسيا الصغرى إلى الشمال من هيرابوليس بالقرب من نهر الميأندر.

لمزيد من التفاصيل:

=

جبلية شديدة الانحدار مما أدى إلى انزلاق الكثير من الخيول وعربات البضائع أثناء السير، ونفذت مؤن الألمان في ذلك الوقت، ولم يعد معهم سوى الخبز[١]، (انظر الخريطة رقم ٤)، وزاد من معاناتهم عجزهم عن الحصول على أي مؤن من المدن الموجودة على جانبي هذا الطريق؛ ذلك لأنها كانت في حالة يرثى لها من الخراب والدمار؛ بسبب تعرضها لهجوم القبائل التركمانية المستمر، الأمر الذي أدى إلى نزوح سكانها عنها، وبذلك لم يجد الجيش الألماني أرضًا مزروعة أو مدنًا عامرة يمكنه الحصول منها على احتياجاته وخير مثال على ذلك مدينة هيرابوليس Hierapolis التي وصل إليها في **٢٥** ابريل[٢].

إلا أن الجيش الألماني لم يلبث أن حصل على كل ما احتاج إليه من مؤن في مدينة لأودكيا-وصل إليها في **٢٥** ابريل وهي آخر الممتلكات البيزنطية- التي استقبل سكانها فردريك وجيشه أحسن استقبال، وقدموا له المؤن والإمدادات[٣].

بعد مدينة لأودكيا دخل الجيش الألماني المنطقة السلجوقية في آسيا الصغرى، وبدلًا من أن يواصل رحلته جنوبًا ويسلك الطريق الساحلي مثلما فعل لويس السابع أثناء الحملة الصليبية الثانية، نجده يتجه-على نحو غير متوقع- إلى الشرق متخذًا الطريق الروماني القديم المار بـ آباميا Apamea[٤] وأنطاكية-بيسديا- ثم قونية،

=

Ramsay, Historical Geography, p. 121.

(1)Ansbert, Historia, p. 74؛ Eickhoff, E., Friedrich Barbarossa Im Orient, Kreuzzug und Tod Friedreichs I, (Tubingen 1977), pp. 97-98.

(2)Historia Peregrinorum, p. 154؛ Eickhoff, Friedrich Barbarossa, p. 97.

- هيرابوليس، مدينة في فريجيا جنوب غرب آسيا الصغرى، تدل حفرياتها على أنها كانت عامرة بالكنائس، لكنها تعرضت للدمار وهجرها سكانها.

O.D.B., 2, p. 928.

(3)Ansbert, Historia, p. 75؛ Choniates, Annales, pp. 226؛ Eickhoff, Friedrick Barbarossa, p. 101؛ Cahen, Selgukides, Turcomans et Allemands, p. 28.

(٤) آباميا، هي دينار الحالية Dinar تقع في فريجيا ويمر بها الطريق التجاري الهام الذي يربط شرق آسيا الصغرى بغربها.

لمزيد من التفاصيل:

Ramsay, Historical Geography, pp. 40-41, 180.

ويتعرض بذلك لمعاناة شديدة طيلة ٢٠ يومًا، عبر عنها انسبرت بقوله: لقد لقينا على مدى ٢٠ يومًا-من ٢٨ إبريل إلى ١٨ مايو- ما لم نلقاه منذ دهر الدهور[١]. (انظر الخريطة رقم ٣، ٤).

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال هام وهو: لماذا لم يتابع فردريك سيره نحو الجنوب وينقذ نفسه من هذه المعاناة، بدلًا من أن يسلك هذا الطريق الذي لم يسبق لأي حملة صليبية اتخاذه؟.

يجيب على هذا السؤال صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري، إذ يذكر بأن ما دفع الإمبراطور الألماني إلى اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة هو معرفته بأن السلطان السلجوقي عزم على منعه من عبوره بلاده وذلك عندما علم بأمر توقيع المعاهدة بينه وبين الإمبراطور البيزنطي إسحاق أنجيلوس، ومن هنا أمر بغلق الطرق والممرات التي سيعبرها الجيش الألماني معتقدًا أنه سيسلك الطريق المباشر بعد لأودكيا، مما اضطر فردريك إلى تجنب هذا الطريق واتخاذ طريق آخر غير مباشر[٢]، إلا أن هذا الطريق كان طويلاً وشاقًا، ويخترق منطقة صحراوية جدباء، الأمر الذي أصاب الألمان بالضعف والمرض، وأدى إلى هلاك الكثير من الخيول وحيوانات الحمل، وبذلك تحول العديد من الفرسان الألمان إلى مشاة، هذا بالإضافة إلى مهاجمة التركمان الأوج، فبالرغم من أن هذه المنطقة تقع داخل نطاق الدولة السلجوقية إلا أن هؤلاء التركمان كانوا السادة الحقيقيين في هذا الجزء من الدولة-الذي يقع بين ضوروليوم وبيسديا- إلى حد يمكن القول معه بأن نفوذ الدولة السلجوقية يبدأ فقط من مدينة سوزبوليس[٣]. (انظر الخريطة رقم ٤).

ومع تقدم الجيش الألماني على هذا الطريق أخذ هؤلاء التركمان يضاعفون من هجماتهم عليه، وقد أنهك هذا الأسلوب الجديد من القتال-الذي اعتمد على المفاجأة

---

(1)Ansbert, Historia, p. 76؛ (Historia Peregrinorum, p. 155؛ Oman, Art of War, I, 249).

(٢) ذيل تاريخ وليم الصوري، ص٣٥٥.

(3)Ansbert, Historia, p. 76؛ Historia Peregrinorum, p. 155؛ Eickhoff, Friedrich Barbarossa, pp. 105-107, 111-112؛ Vryonis, Decline. P. 193.

والانسحاب سريعًا لاستدراج العدو بعيدًا إلى الكمائن المعدة لهقوة الألمان، وساعدت طبيعة هذه المنطقة التركمان على ممارسة أساليبهم القتالية التي قاموا بها عدة مرات، والتي لم تعط للألمان الفرصة لالتقاط أنفاسهم، لدرجة أنهم كانوا يتناولون طعامهم وينامون والأسلحة في أيديهم والدروع على أجسامهم، كأنهم في قلب معركة مستمرة، وذلك استعدادًا للهجوم التركماني عليهم في أية لحظة(١).

لكن لماذا هاجم هؤلاء التركمان جيش فردريك، ألم يعلموا أن قليج أرسلان الثاني، وعده بالمرور الآمن عبر أراضيه?، كما أن الجيش الألماني لم يعتدِ عليهم أو يسلبهم مواشيهم أو محاصيلهم، الأمر الذي أصاب الألمان بالدهشة والإحباط نتيجة لهذا الهجوم الغير متوقع في أراضي أصدقائهم السلاجقة، وعبر انسبرت عن ذلك بقوله: «وقد عبرنا أراضيهم آملين ألا يسببوا لنا أي إزعاج أو ضرر؛ لأننا دخلنا مسالمين، وكأصدقاء... لكنهم فجأة خيبوا كل آمالنا، وانقلبوا من أصدقاء إلى ألد الأعداء، وراحوا يمطروننا بسهامهم، ويهاجموننا بلا انقطاع مقدمين لنا الهلاك بدلًا من الغذاء»(٢).

بيد أن الأمر الذي ينبغي ملاحظته هو أن هذه القبائل التركمانية لم تكن تخضع لسيطرة الدولة السلجوقية، وهذا ما ذكره مبعوثي قليج أرسلان الثاني الذين صاحبوا الجيش الألماني من لأودكيا، وأخبروا فردريك أن هؤلاء التركمان جماعات من البدو الرعاة الذين لا يرضخون لأية سلطة، بل إنهم لا يتورعون عن الاعتداء على أملاك السلطان السلجوقي نفسه، وبناء على ذلك لم يكن التركمان يلتزمون بأي وعد يقدمه قليج أرسلان الثاني لفردريك، فكان ما يهمهم هو الحصول على الغنائم دون التفكير فيما سيترتب على نهبهم هذا من نتائج سيئة على العلاقات بين الطرفين(٣).

---

(1)Vinsovfs, Itinerary of Richard I, pp. 96-97؛ Ricardo, Chronicles and Memorials of The Reign of Richard I, ed., Stubbs W.,R.S., (London 1964), p. 50؛ Eickhoff, Friedrich Barbarossa, pp. 111-112.

(2)Ansbert, Hsitoria, p. 76؛ (Historia Peregrinorum p. 155؛ Ricardo, Chronicles, p.48).

(3)Historia Peregrinorum, p. 156؛ Eickhoff, Friedrich Barbarossa, p. 111؛ Cahen, Selgukides, Turcomans et Allemands, pp. 28-29.

فبالرغم من الميل الطبيعي لهذه القبائل للسلب والنهب، إلا أنه من الصعب إغفال أن هؤلاء التركمان كانوا مسلمين، وأن أساس وجودهم في هذه المناطق الحدودية هو الجهاد في سبيل الله، وأنهم كما يقول فريونس: كان تحركهم روح الحرب المقدسة ضد المسيحيين، ويتضح ذلك من خلال تقديرهم لأضرحة الفاتحين المسلمين هناك، ومن ثم كانوا دائمًا يقومون بالهجوم على الممتلكات والجيوش البيزنطية دون مراعاة للمعاهدات المعقودة بين الجانبين البيزنطي والسلجوقي مثلما حدث لجيش مانويل أثناء عودته من معركة ميريوكيفالون، مع أنه ليس جيشًا صليبيًا، فماذا سيكون الوضع مع الجيوش الصليبية، وبهذا كان من الطبيعي أن يقوم هؤلاء بالاعتداء على الجيش الألماني الذي يتجه لقتال المسلمين في بلاد الشام، سواء قاموا بذلك من تلقاء أنفسهم، أو شجعهم على القيام به أبناء قليج أرسلان الثاني خاصة وأنهم سيقفون إلى جوارهم أكثر من مرة أثناء قتالهم للجيش الألماني[1].

ومهما يكن من أمر فقد استمرت مطاردة هذه القبائل التركمانية للجيش الألماني حتى وصوله مدينة سوزبوليس، التي نشبت بعدها بمسافة صغيرة -في ٢ مايو- معركة بين الطرفين حالف الحظ فيها هؤلاء التركمان الذين تمكنوا من قتل حوالي ٣٠٠ شخص من الألمان، وساعدهم على تحقيق ذلك ما حل بالجيش الألماني في ذلك الوقت من جوع وعطش شديدين[2].

بعد ذلك بقليل وقبل أن يفيق الجيش الألماني من هذه الصدمة، كان عليه مواجهة صعوبة جديدة، فقد احتشد جيش سلجوقي ضخم لقتاله (يتألف من ٣٠ ألف محارب) بقيادة أبناء السلطان قليج أرسلان الثاني، حكام مدن أنقرة وقيصرية، وفيلوموليون، مع العديد من القبائل التركمانية، وانتظر هذا الحشد الجيش الألماني عند ميريوكيفالون في ٣ مايو، وقد علم بذلك فردريك، وحتى يجنب جيشه الوقوع في هذا الكمين سلك طريقًا غير مباشر بمساعدة أسير تركي أجبره على إرشاده، (انظر الخريطة رقم ٤)، إلا أنه كان على الجيش الألماني في هذا الطريق أن يعبر جبلاً شاهقًا انزلقت أثناء صعوده العديد من

(1)Vryonis, Decline, p. 193؛ Idem, Nomadization and Islamization, pp. 49-50؛ Cahen, Selgukides, Turcomans et Allemands, p. 24.

(2)Ansbert, Historia p. 77.

الخيول وحيوانات الحمل بحمولتها أسفل الجبل، ولم يفلح في الهروب من هجوم السلاجقة الذين كانوا ينتظرونه في أحد ممرات هذا الجبل، وبعد أن عبرت مقدمة الجيش بقيادة الدوق فردريك-ابن الإمبراطور- خرج السلاجقة من كمائنهم وانقضوا على بقية الجيش، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين، ووضع هذا الهجوم المفاجئ فردريك في وضع حرج فأرسل إلى ابنه الدوق فردريك يطلب نجدته، فأسرع الابن لنجدة أبيه واشتبك مع السلاجقة، وأثناء القتال تحطمت خوذته وأسنانه، وأصيب أيضًا عدد من الألمان بالجراح في هذا القتال، بالإضافة إلى قتل عدد آخر، إلا أنهم تمكنوا في النهاية من عبور الجبل والوصول إلى السهل(١).

بعد أنوصل الجيش الألماني إلى هذه المنطقة أصر فردريك على التوجه إلى قونية، ويبدو أن ما دفعه إلى ذلك هو اعتقاده في خيانة قليج أرسلان الثاني لوعوده السابقة له، وأنه كان السبب في كل الصعوبات التي وقعت للجيش الألماني حتى ذلك الوقت، خاصة وأنه وجد في المعركة الأخيرة من يقاتله ليس فقط التركمان، وإنما يقف إلى جوارهم أبناء السلطان، مما زاد من شكوكه، ومن ثم رأى أن يواجه الأمر بشجاعة ويتوجه إلى عاصمته، واضعًا حدًا لهذه الأخطار، وفارضًا مروره بالقوة على ذلك الرجل، وربما-أيضًا- اعتقد أنه بذهابه إلى هناك سيجد طريقًا مباشرًا، بدلًا من الصعوبات التي اعترضت جيشه في الطريق الغير مباشر(٢).

بيد أن الجيش الألماني لم يلبث أن تعرض للعديد من الصعوبات في طريقه إلى قونية، فقد تجددت هجمات التركمان عليه، وفي إحدى هذه المعارك قتل فردريك أف هاوزن Frederick of Hausen مغني الإمبراطور، وبمرور الوقت اشتدت هجمات هذه القبائل التركمانية وزادت أعدادهم، فكانوا «كالإخطبوط يتكاثر بقدر ما تقطع من رؤوسه»، واستمرت مطاردتهم للجيش حتى مدينة فيلومليون، وهناك دارت

(1)Ansbert, Hsitoria, pp. 77-88؛ Historia Peregrinorum, pp. 157-159؛ Vinsovfs, Itinerary of Richard I, p. 97؛ Ricardo, Chronicles, pp. 50-51؛ Eickhoff, Friedrich Barbarossa, p. 119.

(2)Ansbert, Historia, p. 78؛ Munz, Fredereick Barbaross, p. 395.

ذيل تاريخ وليم الصوري، ص٣٥٥؛ صلاح ضبيع، دور الألمان، ص١٧٣.

رحى معركة شديدة بين أبناء قليج أرسلان الثاني والألمان انتهت بدخول الجيش الألماني المدينة وحرقها في ٧ مايو[١].

وإضافة إلى ذلك فإن الألمان عانوا في هذه الفترة من الجوع والعطش الشديدين، ذلك أن السلاجقة لم يكتفوا بالامتناع عن تقديم المؤن للألمان، بل مارسوا سياستهم المألوفة في حرق المؤن والمحاصيل أو إخفائها داخل الجبال، ولم يكن في مقدور هؤلاء البؤساء التجول في تلك الصحراوات عسى أن يجدوا ما يسد رمقهم، وذلك بسبب مراقبة السلاجقة لتحركاتهم، فكان مصير كل من يحاول الخروج عن الجيش الأسر أو القتل على أيديهم.

ونفذت في تلك المرحلة مؤن الجيش الألماني، لدرجة أن من كان لديه القليل من الدقيق كان يخفيها وكأنها ذهبًا، ودفع هذا الجوع الألمان إلى تناول لحوم الخيل والحمير والبغال، في حين قام البعض الآخر بالهروب إلى السلاجقة وترك الجيش، وبذلك «انضموا للأعداء متخلين عن رسالتهم المقدسة، وغير عابئين بمهمتهم الدينية، أما من أضعفهم الجوع والتعب وعجزوا عن مواصلة السير فقد تركهم الجيش ورائه، فانقض السلاجقة عليهم وقاموا بقتلهم جميعًا»[٢].

في ظل هذه الظروف السيئة استمر الهجوم على الجيش الألماني فحشد السلاجقة جيشًا ضخمًا بقيادة قطب الدين بن قليج أرسلان الثاني، وانضم إليه جماعة من التركمان بقيادة زعيمهم رستم، واستعدوا لقتال الجيش الألماني، وعندما علم فردريك بذلك قام بتقسيم رجاله إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول بقيادة أسقف مونستر، والقسم الثاني بقيادته هو، أما القسم الثالث والأخير فكان بقيادة ابنه الدوق فردريك، ووضع المدنيين في الوسط وأحاطهم بالجنود والمشاة ورماة السهام للدفاع عنهم، وأخذ فردريك والأساقفة يخطبون في الجيش لرفع روح الجنود المعنوية، وبدأت المعركة باشتباك

---

(1)Historia peregrinorum, pp. 159-160؛ Magnus of Reichersberg, Chronica, p. 513؛ Choniates, Annales, p. 227؛ Eickhoff, Friedrich Barbarossa, p. 121.

(2)Ansbert, Hsitoria, pp.79-80؛ Historia Peregrinorum, pp. 160-161؛ Arnold of Lubeck, Chronica Slavorum, ed. Pertz, G.H., M.G.H.ss, 21, (Hanover 168), p. 134؛ Barger, E., In The Track of The Crusaders, (London 1931), p. 176.

القوات السلجوقية مع جبهة الإمبراطور الذي طلب النجدة من ابنه الدوق فجاء إليه مسرعًا، وهاجم قطب الدين وقواته، ووقعت معركة بين الجانبين انتهت بانسحاب قطب الدين وقواته إلى قونية[1].

بالرغم من الانتصار الذي حققه الألمان على السلاجقة، إلا أن الجيش الألماني تعرض في نفس اليوم لعاصفة رملية أدت إلى تشتيت قواته، واستطاع أن يلم شمله بصعوبة، هذا بالإضافة إلى أن المرشد الذي كان يصاحب الجيش انحرف به إلى طرق طويلة وقاحلة، فاشتد به الجوع والعطش لدرجة أن الجنود كانوا ينكبون على جثث الخيول ليشفوا غليلهم بشرب دمائها، في حين كان البعض الآخر يأكلون روث الماشية أو القليل من الحشائش التي يجدونها مصادفة على جانبي الطريق لعلها ترطب جوفهم، الأمر الذي أدى إلى هلاك الكثير منهم، وعندما وجدوا مستنقعًا فإن «ماءه الراكد بدا لهم ألذ من نهر الجنة»، ولكن السلاجقة كانوا قد نصبوا كمينًا لهم هناك، وقاموا بالهجوم عليهم وقتلوا عددًا كبيرًا منهم[2].

فضلاً عن ذلك فقد عانى الألمان من صعوبة السير في هذه الطرق الوعرة، ففي أحيان كثيرة كانت الخيول تعجز عن السير، بل إن الجنود كانوا في بعض الأوقات يعجزون عن السير على الأقدام، فكان فردريك يرسل الرجال لتمهيد هذه الطرق، أو يأمر بإلقاء الخيول أو الحيوانات التي ماتت من شدة المعاناة في الممرات الجبلية لتكون جسرًا يعبر عليه الجيش، الأمر الذي أدى إلى بطء معدلات سير الجيش الألماني، فكانوا «لا يقطعون فرسخًا إلا في يومين»[3].

ولو نظرنا إلى المسافة بين مدينة فيلوموليون التي غادرها الجيش الألماني في ٨ مايو، ومدينة قونية التي وصل إليها في ١٨ مايو-وهي ٧٥ ميلاً- نجد أن الجيش الألماني قطع

---

(1)Ansbert, Historia, pp. 80-81؛ Historia Peregrinorum, pp. 162-165؛Magnus of Reichersberg, Chronica, pp. 513-514؛ Eickhoff, Friedrich Barbarossa, pp. 127-128؛ Cahen, Selgukides, Turcomans et Allemands, p.24.

(2)Ansbert, Historia, pp. 82-83؛ Historia Peregrinorum pp. 165-166؛Magnus of Reichersberg, Chronica, p. 514؛ Eickhoff, Friedrich Barbarossa, p. 129؛ Johnson, Crusades, p. 111.

(٣) ذيل تاريخ وليم الصوري، ص٣٥٥؛ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٣١٨.

هذه المسافة في ١٠ أيام، مع ملاحظة أنه لم يتوقف في أي منطقة على الطريق، أي أنه سار بمعدل ٧,٥ ميلاً في اليوم الواحد، وهذا معدل منخفض إذا ما قورن بمعدلات سير الجيش نفسه في الجزء الأوربي من الطريق البري التي كانت تتراوح بين ١٣-١٨ ميلاً في اليوم الواحد[١].

واشتدت معاناة الألمان في هذه الفترة لدرجة أنهم عجزوا عن حمل أسلحتهم، فكانوا يقومون بدفنها حتى لا يستولى السلاجقة عليها، أو يشعلون فيها النيران لتتلف ولا ينتفع بها أحد، أو للتدفئة من البرد الشديد الذي أهلك الكثير منهم[٢].

على أي حال أدت هذه العقبات التي واجهت الجيش الألماني عبر رحلته في آسيا الصغرى إلى موت عدد كبير من الألمان «فكان يموت في كل يوم ألوف من الرجال»، هذا بالإضافة إلى قتل الكثير منهم أثناء المعارك مع السلاجقة، وهلاك العديد من الخيول وحيوانات الحمل[٣].

ونتيجة للصعوبات التي واجهها الجيش الألماني في طريقه إلى قونية طلب العديد من الجنود الألمان من فردريك التوجه مباشرة إلى أرمينية، وتجنب الذهاب إلى قونية لعلهم يجدون مخرجًا من هذه المعاناة الدائمة قائلين: إن مدينة كهذه (قونية) لا يمكن للجيش الاستيلاء عليها -وهو في هذه الحالة- لاسيما وأنها تغص في خارجها وداخلها

---

(1)Oman, Art of War, I, p. 249؛ Nesbitt, J.W., "The Rate of March of Crusading Armies in Europe", T, 19 (1963), p. 180.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٩٤؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية المعروف بسيرة صلاح الدين الأيوبي، تحقيق/ سعد كريم الفقي، (الإسكندرية ١٣٤٦)، ص١٠٢؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٤، ص١٢٩، الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق/ ناظم سيد، (العراق ١٩٧٨)، ص١٦٣-١٦٤؛ الحنبلي، الآنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تقديم/ محمد بحر العلوم، ج١، (بغداد ١٩٨٦) ص٣٦٤-٣٦٥.

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص١١٤؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، تحقيق/ محمود ديوب، (بيروت ١٩٩٧)، ج٢، ص١٦٤.

Benedict of Peterborough, The Chronicle of The Reigns of Henry II and Richard I, A.D. 1169-1192, ed. Stubbs, W.,R.S., (London 1867), p. 89؛

Church, A.J., The Crusaders, A Story of The War for The Holy Sepulcher, (London 1912), p. 119.

بالمحاربين الذين مازالوا يحاصرون جماعتنا في الحقول ويهاجمونها، بحيث يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم، لكن رفض البعض الآخر هذا الرأي وقالوا: إن الطريق إلى أرمينية طويل وشاق مما سيؤدي إلى هلاك الجيش جوعًا ومشقة، ومادام سيتعرض الجيش للهلاك في كلتا الحالتين، فمن الأفضل أن يهلك وهو يقاتل السلاجقة، بدلًا من أن يموت موتًا بطيئًا وسط التخاذل والعار، وتم الأخذ بهذا الرأي، وبذلك واصل الألمان سيرهم إلى قونية وهم في حالة شديدة من الجوع والعطش والإعياء، والسلاجقة يحيطون بهم إحاطة الطوق بالمعصم حتى وصلوا قرب قونية في ١٧ مايو[1].

قام الجيش الألماني بنصب معسكره في الحدائق المحيطة بقونية التي كان الألمان «يستلذون حشائشها كطعام الجنة»؛ وذلك لشدة جوعهم، على أنهم لم يلبثوا أن تعرضوا في نفس اليوم لأمطار غزيرة أغرقت خيامهم، فاضطروا إلى البحث عن ملجأ بعيد، وفي اليوم التالي قام فردريك بتقسيم جيشه إلى قسمين: القسم الأول بقيادة ابنه الدوق فردريك وكانت مهمته حصار المدينة، والقسم الثاني بقيادته هو وكان عليه البقاء خارج المدينة للتصدي للسلاجقة إذا ما حاولوا تطويق الدوق فردريك وفرقته، في ذلك الوقت كان قطب الدين قد أعد جيشًا ضخمًا قدره البعض بـ٣٠٠ ألف، ووقف إلى جواره فرقة كبيرة من التركمان، وكان واثقًا من النصر لدرجة أنه أحضر السلاسل الحديدية لتقييد الألمان بعد هزيمتهم، وتقدم فردريك بقواته لحصار المدينة فتصدى له السلاجقة، ووقعت معركة بين الطرفين عجز الألمان خلالها عن مقاومة هذا الوابل الكثيف من السهام المنطلقة نحوهم والصمود للقتال السلجوقي العنيف، فأسرعوا بالانسحاب، عند ذلك حاول الدوق فردريك جمع شملهم مرة أخرى، وإعادتهم للقتال فخطب فيهم قائلاً: «أيها الأبطال، يا من صمدتم حتى الآن ببسالة في سائر الحروب والمعارك ما لكم الآن تهربون هائمين على وجوهكم نحو الهلاك خائفين من النزال كالعاقين والأنذال... لا مجال هنا للهرب لا ملاذ لكم إلا الإقدام، لابد من الصمود حتى النفس الأخير، فهيا أيها الجنود البواسل عودوا إلى المعركة»، فرجع

(1)Historia Peregrinorum, pp. 167-168؛ Vinsovfs, Itinerary of Richard I, p. 97؛ Magnus of Reichersberg, Chronica, p. 514؛ Arnold of Lubeck, Chronica, p. 136.

الألمان المنسحبون للقتال واشتبكوا مع السلاجقة في معركة سريعة استطاعوا فيها هزيمة السلاجقة ودخول قونية في ١٨ مايو[١].

على هذا النحو استطاع الدوق فردريك وقواته دخول قونية، أما الإمبراطور فقد اشتد هجوم السلاجقة عليه، مما دفع البعض إلى القول: أنهم جميعا قد أيقنوا الهلاك، وأن الإمبراطور-الذي شهد معارك لا تحصى أنهك فيها منافسيه- بكى في هذه المعركة متحسرًاعلى جيشه الذي أشرف على الهلاك، إلا أنه استطاع في النهاية أن يفيق من هول الصدمة، وأخذ يشجع رجاله على المقاومة حتى استطاع الوصول إلى ابنه في قونية[٢].

بعد أن دخل الألمان قونية أحدثوا مذبحة كبيرة بسكانها وأحرقوا أسواقها، واستولوا على كل ما وجدوه فيها من أموال وثروات وذهب وفضة، ووجدوا في قصر قطب الدين كنزًا ضخمًا كان مهر زوجته ابنة صلاح الدين[٣] فقاموا بنهبه، واستولوا كذلك على ما وجدوه في المدينة من المواد الغذائية التي هدأت جوعهم، وحصلوا على العلف اللازم لخيولهم، وظلوا في المدينة عدة أيام ينعمون فيها بالراحة بعد رحلتهم الشاقة عبر آسيا الصغرى[٤].

---

(1)Historia Peregrinorum, pp. 168-169؛ Magnus of Reichersberg, Chronica, p. 514؛ Ricardo, Chronicles, pp. 51-52؛ Arnold of Lubeck,Chronica, pp. 136-137؛ Benedict of Peterborough, Chronicle, p. 89؛ Cahen, Selgukides, Turcomans et Allemands, pp. 29-30.

(2)Ansbert, Historia, pp. 85-86؛ Magnus of Reichersberg, Chronica, p. 514.

(٣) هي ابنة العادل أخو صلاح الدين وكانت زوجة لقطب الدين، واعتاد المؤرخون اعتبارها ابنة صلاح الدين.

صلاح ضبيع، دور الألمان، ص١٧٤، حاشية رقم ١.

(4)Hostoria peregrinorum, p. 170؛ Magnus of Reichersberg, pp. 514-515؛ Otto of St. Blasien, Third Crusade, p. 534؛ Johnson, Crusades, p. 112؛ Munz, Frederick Barbarossa, p. 395؛

ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل، ج٣، ص٣٧٥؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٢٨؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق/ محمد مصطفى زيادة، ج١، ق١، (القاهرة ١٩٣٤)، ص١٠٤.

- يذكر نيقتاس الخونياتي، أن الألمان لم يدخلوا قونية وإنما نصبوا معسكراتهم خارجها وهو يخالف برأيه هذا الآراء السابقة.

Choniates, Annales, p. 228.

ترتب على هذه الانتصارات أن فقد قليج أرسلان الثاني كل أمل في مقاومة الجيش الألماني، فأرسل مندوبيه إلى فردريك طالبًا السلام ومعتذرًا عما وقع له من إهانات داخل أراضيه فقالوا له: إن رجاله وأبناءه انتهزوا فرصة شيخوخته وضعفه لإرغامه على النكوص بالعهود القديمة، فهو يتوسل إليك طالبًا الصلح والرحمة عسى أن تمن جلالتك بالعفو على شعب مدينته، ويعدك بالسلام والأمان حتى مغادرة تخوم مملكته، وضمانًا لهذه الوعود فهو مستعد لتقديم ما شئت من أشرف الرهائن(١)، وبعد أن تشاور فردريك مع رجاله حول طلب السلطان السلجوقي رد قائلاً: بناءًا على ما بين الإمبراطور والسلطان من صداقة عريقة القدم، أوفد إلينا مندوبيه، ودعانا إلى أراضيه ووعدنا بالعبور الآمن والتموين لسائر الجيش، ثم إن مندوبيه وأبناءه مثلوا أمام حضرتنا في أدريانوبل، وقدموا المزيد من الوعود والإغراءات لنا وللذين جاءوا معنا، لكن بدلًا من ذلك أحاط بنا الملك قطب الدين وجميع قواته وألقى بنا بين الأعداء فأحدقوا بنا كالنحل، وانقضوا علينا كالنار في الهشيم... لكن لما كان إمبراطور الرومان تصاحبه على الدوام الرحمة والحق يفضل الصفح على القمع، قررنا أن نمنحكم هذه النعمة ليحل سلامنا عليكم، بشرط أن تسلمونا ما نطلبه من رهائن... ونجمع ما نحتاج من مؤن، وعندما سمع المندوبون هذه الإجابة اتجهوا سريعًا إلى قليج أرسلان الثاني الذي وافق على كل مطالب فردريك(٢).

هكذا استطاع قليج أرسلان الثاني أن يحظى بموافقة فردريك على طلبه، ولكن المصادر الإسلامية تذكر أن فردريك هو الذي بدأ بطلب الصلح من السلطان فأرسل إليه قائلاً: «ما قصدنا بلادك ولا أردناها وإنما قصدنا بيت المقدس»، وقدم له الهدايا، وطلب منه الهدنة والسماح له بالحصول على ما يحتاج إليه من مؤن، فوافق قليج أرسلان

(1)Historia Peregrinorum, p. 170؛ Magnus of Reichersberg, Chronica p. 515؛ Ricardo, Chronicles, p. 53؛ Arnold of Lubeck, Chronica, p. 137؛ Otto of St. Blasien, Third Crusade, p. 534.

(2)Ansbert, Hsitoria, pp. 87–88؛ Historia Peregrinorum, pp. 170–171؛Magnus ofReichersberg,Chronica,p.515.

الثاني على طلبه[1].

على أن الأمر الذي ينبغي ملاحظته هو أن فردريك لم يكن في وضع حرج يجعله يرسل إلى السلطان يستعطفه ويطلب منه الصلح، بل إنه تمكن من هزيمة جيشه واحتلال عاصمته، وصار في وسعه عندئذ أن يفرض عليه ما يشاء، وأن يحصل على كل ما يحتاج إليه جيشه من إمدادات في أراضيه، كما أنه لم يتبق للإمبراطور سوى جزء صغير ثم يعبر بلاده إلى بلاد الأرمن المسيحية، ومن ثم لم يكن في حاجة شديدة إليه حتى يرسل إليه راجيًا مستعطفًا.

ولهذا يبدو الرأي الأكثر احتمالًا أن قليج أرسلان الثاني هو الذي بادر بطلب الصلح من فردريك؛ إنقاذًا لبلاده من الدمار والخراب على أيدي الجيش الألماني، ووافق فردريك على طلبه مرحبًا؛ لأنه كان يرغب في إنهاء رحلته عبر آسيا الصغرى سريعًا وعدم الدخول في أي مرحلة من شأنها أن تعوقه عن تحقيق هدفه الأساسي في الشرق، لذلك أرسل إلى قليج أرسلان الثاني يطمأنه بأنه لا ينوي أن ينزل به أو ببلاده أي ضرر.

على أي حال وقعت في قونية معاهدة صلح وتعاون بين الطرفين ضد صلاح الدين، وقام قليج أرسلان الثاني بتموين الجيش الألماني بكل احتياجاته وقدم لفردريك عددًا من الأمراء والقادة كرهائن ولإرشاده حتى أرمينية، وتبادل الطرفان الهدايا[2].

على هذا النحو تحقق لفردريك ما كان يرغب فيه، فقد أعلن قليج أرسلان الثاني موافقته على عبور الجيش الألماني بسلام عبر أراضيه، وقدم له ما احتاج إليه من مؤن ومرشدين وكل التسهيلات اللازمة له، الأمر الذي دفع المؤرخون المسلمون إلى اتهام السلطان السلجوقي بالاتفاق سرًا والتواطؤ مع الإمبراطور الألماني ضد صلاح الدين،

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٩٤؛ أبو شامة، الروضتين، ج٤، ص١٣٣-١٣٤؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٥٤.

(2)Hsitoria Peregrinorum, p. 1701؛ Magnus of Reichersberg, Chronica, p.515؛ Grousset, Croisades, 3, p. 15؛ Cahen, Selgukides, Turcomans et Allemands, p.30 .

ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل، ج٣، ص٣٧٥.

وأنه كان يظهر شقاقه وهو في الباطن يضمر وفاقه، وأنه عندما عبر أراضيه أظهر ما كان قد أخفاه من مودة له، وقدم له الرهائن وزود جيشه بالإمدادات[١].

ويبدو أن هؤلاء المؤرخين استندوا في اتهامهم هذا لقليج أرسلان الثاني على وعده لفردريك بالمساعدة وتقديم المؤن عندما أرسل إليه يخبره بأمر حملته، ثم سماحه له بعد ذلك بعبور أراضيه.

بيد أن الأمر الذي ينبغي ملاحظته أن هذا التحالف بين الطرفين والذي كان عند قيام الحملة الصليبية الثالثة قد مر عليه أكثر من **١٥** عامًا، قد تم تحت ضغط ظروف معينة، وهي اشتراك الطرفين في العداء ضد مانويل كومنين[٢]، ولكن هذه الظروف قد زالت، ولم يعد هناك أي خطر يتهدد السلاجقة من قبل الدولة البيزنطية بعد انتصار ميريو كيفالون، وبعد أن فقدت الدولة البيزنطية كل أمل في استرداد آسيا الصغرى من السلاجقة، وما تبع ذلك من وفاة مانويل وعجز أسلافه الأباطرة البيزنطيون عن القيام بأي دور ضد السلاجقة في آسيا الصغرى، وبذلك لم تعد هناك أية فائدة تعود على السلطان السلجوقي من وراء التمسك بأهداب هذا التحالف الذي لم يتبق منه سوى ذكريات لصداقة قديمة كانت في وقت ما بين الطرفين، فهل كان من المعقول أن تجعل هذه الذكريات قليج أرسلان الثاني يتآمر ضد صلاح الدين ويعادي العالم الإسلامي من أجل فردريك!، وحتى إذا كان هناك بعض التوتر في العلاقات بين قليج أرسلان الثاني وصلاح الدين[٣] فمن الصعب قبول فكرة أن هذا التوتر قد وصل إلى حد التآمر ضد صلاح الدين، فالحملة الصليبية الثالثة جاءت للانتقام من المسلمين واسترداد بيت

---

(١) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق/ محمد محمود صبيح (القاهرة ١٩٦٥)، ص٣٨٢؛ ابن شداد، صلاح الدين، ص١٠٢، أبو شامة، الروضتين، ج٤، ص١٢٩.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين مانويل وفردريك:
عبد العزيز محمد، العلاقات البيزنطية- اللاتينية، ص٦٢-٨٨.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين صلاح الدين والسلطان السلجوقي:
عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، العلاقات بين سلاجقة آسيا الصغرى والدولة الأيوبية، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية دار العلوم- جامعة القاهرة، ١٩٧٥؛ محمد نجيب زكي الوسيمي، سلطنة سلاجقة الروم ٥٨١-٦٤١هـ/١١٨٥-١٢٤٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة- كلية الآداب- جامعة القاهرة، ١٩٩٤، ص١٠٨.

المقدس، وكان قليج أرسلان الثاني، يدرك ذلك جيدًا، ولم يكن وهو الحاكم المسلم يجرؤ على مساعدة المسيحيين ضد إخوانه المسلمين، خاصة صلاح الدين الذي ظهر في ذلك الوقت في صورة بطل العالم الإسلامي، والمدافع عنه ضد القوى المسيحية والتفت حوله قلوب المسلمين وتعلقت به آمالهم خاصة بعد انتصاره في حطين واستيلائه على بيت المقدس، فإذا حدث ذلك فإن السلطان السلجوقي سوف يجلب عليه نقمة العالم الإسلامي.

ومن هنا كان من الطبيعي أن يقف قليج أرسلان الثاني من جيش فردريك موقف المعادي له وذلك عندما أخذ يعبر أراضيه، خاصة وأنه وجد الإمبراطور البيزنطي إسحاق انجيلوس-وهو المسيحي- قد ناوئ الجيش الألماني أثناء عبوره أراضيه وأعاقه بكل وسيلة ممكنة للقضاء عليه أو لإضعافه، لذا فإنه من المحتمل أن يكون السلطان السلجوقي قد فكر في صورته أمام المسلمين بعد أن علموا بعداء إسحاق انجيلوس لفردريك إذ هو وقف إلى جواره ومد له يد المساعدة.

أما عن وعد قليج أرسلان الثاني لفردريك، عندما أرسل إليه فردريك مذكرا إياه بالصداقة القديمة، وطالبًا الأمان لجيشه أثناء عبوره أراضيه-في وقت كان السلطان عاجزًا حتى عن حماية نفسه- بعد أن قام بتقسيم أملاكه بين أبنائه الذين دخلوا في صراعات ضد بعضهم البعض بل وضد أبيهم[1]، فإن السلطان السلجوقي قد أضحى في وضع حرج، مما جعله يقدم هذا الوعد، لكنها كانت مجرد **(وعود)** اضطر السلطان السلجوقي إلى تقديمها للإمبراطور حتى لا يحمل مسبقًا ضده نوايا سيئة، ويضمن عدم قيامه بأي أعمال عدائية عند دخوله أراضيه منتظرًا ما تسفر عنه الأيام من أحداث، وربما اعتقد قليج أرسلان الثاني أن فردريك لن يتمكن من الوصول إلى بلاده، وسوف يتم القضاء عليه وعلى جيشه بواسطة إسحاق انجيلوس أثناء عبوره الأراضي البيزنطية نظرًا للعداء الشديد بين الطرفين، وبهذا رأى السلطان السلجوقي أنه لا ضرر من أن يقدم هذا الوعد لفردريك رغم أنه لم يكن ينوي السماح لجيشه بعبور أراضيه بسلام

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن تقسيم السلطان لأملاكه بين أبنائه والصراعات بينهم:
ابن الأثير، الكامل، ج١، ص٢١٩-٢٢٠؛ محمد الوسيمي، سلطنة سلاجقة الروم، ص٣٦-٣٧.
Cahen, Selgukides Turcomans et Allemands, pp. 24-25.

ودون إعاقة كما ذكر رنسيمان[1].

وجاءت أحداث مرور جيش فردريك عبر آسيا الصغرى لتبرهن على ذلك، فمنذ دخول الألمان هذا الإقليم وحتى قبل وصولهم إلى داخل دولة سلاجقة الروم-في منطقة الحدود- قد تعرضوا لهجوم القبائل التركمانية، وليس من المستبعد أن يكون ما ساعد هذه القبائل على اتخاذ هذا الموقف الشديد العداء هو تحريض السلطات السلجوقية لها، خاصة وأن هذه القبائل قد وقفت أكثر من مرة إلى جانب أبناء قليج أرسلان الثاني في قتالهم ضد الجيش الألماني-كما سبق ذكره-، ثم قام بعد ذلك أبناء السلطان السلجوقي بالاشتباك معه أكثر من مرة حتى مدينة قونية.

وقد أكدت جميع المصادر التي تناولت الحملة الصليبية الثالثة عدم التزام قليج أرسلان الثاني بوعوده، وأنه كان رجلاً متعطشًا لدماء النصارى، افتعل المودة لهم، إلا أنه كان ينوي مباغتتهم وقتالهم، فأخذ يحيك المؤامرات للإساءة إلى الإمبراطور ودحر الجيش المسيحي أثناء عبوره أراضيه، فوضع قواته على الجبال وفي الغابات وعلى جانبي الأنهار، وأعاق مرور الألمان،«وهذا كان السلوك الآمن الذي وعدنا به»[2].

أما فيما يتعلق بسماح قليج أرسلان الثاني لفردريك بالعبور، فقد نسى هؤلاء المؤرخون أن السلطان اضطر إلى ذلك بعد هزيمته واحتلال عاصمته وتهديد دولته، وأنه هو وأبناؤه «لم يكن لهم بهم (الألمان) طاقة فاحتاج إلى مسالمته»"[3]، وهذا لم يكن اتفاقًا بين طرفين متعادلين أو موافقة بالعبور بمحض إرادته، وإنما اتفاق اضطرته الظروف إليه، وكانت شروطًا فرضها الإمبراطور المنتصر على السلطان المهزوم.

ويبدو أن ما دفع هؤلاء المؤرخين إلى التسرع في الحكم على السلطان السلجوقي، هي الظروف القاسية التي مر بها العالم الإسلامي في ذلك الوقت، نتيجة لقدوم الحملة الصليبية الثالثة التي لم تعط الفرصة لهؤلاء المؤرخين ليقدروا موقف قليج أرسلان الثاني التقدير الصحيح أو يلتمسوا له الأعذار.

---

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٨.

(2)Ansbert, Historia, p. 67؛ Vinsovfs, Itinerary of Richard I, p. 96؛ Ricardo, Chronicles, p. 48.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ق١، ص٤٠٣؛حامد زيان، فردريك بربروسا، ص٤٧-٤٨.

ولكن صلاح الدين قد قدر موقف السلطان السلجوقي إذ وفد عليه، بعد ذلك بقليل، معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان الثاني شاكيًا أخاه قطب الدين، فاستقبله صلاح الدين استقبالًا حسنًا، وزوجه إحدى بنات أخيه العادل، ومنع قطب الدين من الاعتداء على أملاكه، ثم أرسل بعد ذلك سفارة لتحقيق الصلح بين السلطان السلجوقي وأبنائه، مما يدل على أن صلاح الدين كان حسن الظن بالرجل، ولم يسلك المسلك الصعب الذي أخذه المؤرخون المسلمون تجاهه، خاصة بعد أن أرسل إليه يعتذر عن مرور الجيش الألماني بأراضيه، وأنه قد اضطر إلى ذلك(١).

ومهما يكن من أمر فإنه بالرغم من توقيع الصلح بين قليج أرسلان الثاني وفردريك إلا أن الجيش الألماني استمر يتعرض بعد قونية لهجوم القبائل التركمانية، مما دفع الإمبراطور إلى تهديد رهائن السلطان السلجوقي قائلاً:«إذا لم يكف أتراككم عن ملاحقتنا، ولم تقدموا المؤن المتفق عليها سننفذ فيكم حكم الإعدام»، واستمر هذا الهجوم حتى وصل الجيش إلى لارندا Raranda-على الحد الفاصل بين أرمينية وليكاونيا- في ٣٠ مايو(٢).

إذا كان تهديد السلاجقة للجيش الألماني قد انتهى بعد ذلك بدخوله المنطقة الأرمينية، حيث شعر الألمان بالاطمئنان والارتياح لرحيلهم من المنطقة السلجوقية، إلا أنهم قد واجهوا صعوبة كبيرة في اجتياز جبال طوروس الشاهقة التي أعاقت سيرهم وأصابتهم بالإرهاق الذي عبر عنه أحد المؤرخين بقوله: «من هو ذلك الإنسان قاسي القلب، جافي التفكير، الذي لا تدمع عيناه أمام أسقف تجره الخيول على سرير لشدة الإرهاق، يا له من منظر مروع منظر أصحاب الدروع رغم ضعفهم ومعاناتهم يحملون

---

(١) عبد الحميد بدوي، سلاجقة آسيا الصغرى والدولة الأيوبية، ص٣٩٢-٣٩٣.

(2)Ansbert, Hsitoria, p. 88؛ Magnus of Reichersberg, Chronica, p. 515؛ Ricardo, Chronicles, p. 53؛ Cahen, Selgukides Trurcomans et Allemands, p.30.

ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٩٤.

- يرى صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري أن السلاجقة الذين قاموا بهذا الهجوم كانوا قوات من جيش قليج أرسلان الثاني أعدها بعد رحيل فردريك للهجوم عليه وليسوا التركمان، ونتيجة لعدم التزام السلطان السلجوقي بإتفاقه قام الإمبراطور بقتل رهائنه.

ذيل تاريخ وليم الصوري، ص٣٥٧-٣٥٨.

أسيادهم عبر تلك الجبال الوعرة وسط تعب شديد»[١].

مما أدى إلى انزلاق عدد كبير من الجنود والخيول أثناء العبور، وإذا كان قد وصل بعد قليل مندوبو الملك الأرميني ليون الثاني Leon II (١١٨٥-١٢١٩م)، وأعلنوا ترحيب سيدهم بالجيش الألماني، واستعداده لتقديم كل المساعدات له في رحلته التالية[٢]، إلا أنهم أخبروا فردريك بما ينتظر جيشه من صعوبات أثناء رحلته المقبلة لدرجة أنه طلب منهم ألا يخبروا جنوده بذلك خشية أن يصابوا بالإحباط إذا علموا بمشقة الطريق، واستمر الجيش الألماني على هذه الحالة حتى وصل سهول سلوقية وهو في حالة شديدة من التعب والإرهاق، إلا أنهم رغم ذلك شعروا بالسعادة لنجاتهم من كل تلك الحروب والأخطار، وما نصب لهم من كمائن السلاجقة «وكأنهم خرجوا من فم الأسد ودخلوا بر الأمان»[٣].

ولكن لم تطل سعادة الألمان إذ شهد الجيش الألماني نهايته المخزية في تلك البقعة من آسيا الصغرى بغرق قائده فردريك في نهر السالف Salef (كاليكادنوس Calycadnus)[٤] وذلك يوم الأحد ١٠ يونيو، وسواء حدث ذلك عندما نزل فردريك النهر بغرض الاستحمام للتخلص من أرقه وعرقه وحرارة الجو أو للسباحة مثلما اعتقد البعض، أو أثناء عبوره حيث انزلقت قدم فرسه في النهر وطوحت به الأمواج مثلما اعتقد البعض الآخر[٥]، إلا أن وفاته كانت كارثة عظمى وخسارة فادحة

---

(1)Ansbert, Historia, pp. 89-90.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين فردريك وليون الثاني أثناء الحملة الصليبية:

Munz, Frederick Barbarossa, p. 395.

ذيل تاريخ وليم الصوري، ص٣٥٩-٣٦٠؛ حامد زيان، فردريك بربروسا، ص٥٠-٥١.

(3)Historia peregrinorum, p. 171؛ Ansbert, Historia, p. 90-91؛ Magnus of Reichersberg, Chronica, p. 515؛ Ricardo, Chronicale, p.54.

(٤) نهر السالف، هو نهر Goksu حاليًا، نهر في قليقية ويصب في البحر المتوسط ويبلغ طوله ١٥٥ ميل.

لمزيد من التفاصيل:

Webster, Geographical Dictionary, p. 448.

(5)Historia Peregrinorum, pp. 171-172؛ Ambroise, The Crusade of Richard Lion- Heart, English Trans. Hubert, M.J., (New York 1941), p.150؛ Benedict of Peterborough, Chronicle, p. 89؛ Burchard Von Ursberg, Die Chronik des =

للجيش الألماني وإيذانًا بفشله، فقد كان فردريك القائد والقدوة، وباختفائه شعر الجنود بالضياع واستبد بهم اليأس وانهارت روحهم المعنوية، وعبر عن ذلك البعض بقوله: «من يعزينا في رحلتنا، فقد سقط بطلنا ونحن الآن كالنعاج التائهة بين الذئاب، ولن ينقذنا أحد من أنيابهم»، فأيقنوا جميعًا الهلاك بعد أن فقدوا أملهم الوحيد، ومات البعض غمًا، وعاد معظمهم إلى وطنهم، وحق بذلك عليهم قول القائل «أضرب الراعي تتبدد الرعية»(١).

أما من بقى من الجيش الألماني فقد سار بصحبة الدوق فردريك إلى مدينة أنطاكية في حالة سيئة، وكأنهم بعثوا من القبور، وهناك وقع فيهم وباء الطاعون ومات أكثرهم، ومن بقى اتجه إلى عكا، وفي طريقهم إلى هناك زادت معاناتهم وتعرضوا للكثير من هجمات المسلمين خاصة أهل حلب «فكان الواحد يأسر جماعة منهم وهانوا في الأنفس بعدما كانوا قد تهيبوا هيبة عظيمة، وبيعوا في الأسواق بالثمن البخس»، وعندما وصلوا إلى هناك لم يتبق منهم سوى ١٠٠٠ شخص، ومات فردريك نفسه هناك فعادوا إلى وطنهم وغرقوا جميعًا(٢).

على هذا النحو تم القضاء على جيش ضخم وقبل أن يحقق أي إنجاز في الشرق، إذ وجهت له ضربة قاصمة في آسيا الصغرى، أولًابتصدي السلاجقة له، ثم بغرق قائده في أحد أنهارها، وتحطمت بذلك الآمال العظمى التي عقدت على فردريك وجيشه لدرجة أن البعض اعتبر أن ما حققته الحملة الصليبية الثالثة من مكاسب ضئيلة في الشرق كان

=

Propstes, ed. Holder-Egger, O. & Simson, B., M.G.H.SRG., (Hanover 1916), p. 61.

أبو شامة، الروضتين، ج٤، ص١٢٩-١٣٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٣١٩؛ الحنبلي، الآنس الجليل، ص٣٦٥.

(1)Historia Peregrinorum, p. 172؛ Vinsovfs, Itinerary of Richard I, p. 101؛ Magnus of Reichersberg. Chronica, p. 516؛Arnold of Lubeck, Chronica, p. 138؛ Otto of St. Blasien, Third Crusade, p. 535؛ Sybel, Crusades, p. 83؛ Kerr, Crusades, p.52.

(٢) الأصفهاني، الفتح القسي، ص٣٩٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٩٤؛ أبو شامة، الروضتين، ج٤، ص١٣٥-١٣٦؛ الحنبلي، شفاء القلوب، ص١٦٤؛
سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٦٦٩-٦٧٠.

مرجعه تلك الصدمة التي لقيتها هذه الحملة في بدايتها بفشل حملة فردريك في آسيا الصغرى، وبأنه لو كتب لفردريك-ذلك القائد العظيم- ولجيشه النجاة من شرك آسيا الصغرى لاختلفت نتائج هذه الحملة اختلافًا تامًا عما آلت إليه[1].

وهكذا جاءت نهاية جيش فردريك لتؤكد خطورة الطريق البري عبر آسيا الصغرى والدور الذي لعبه هذا الإقليم في فشل الحملات الصليبية التي عبرته، ذلك أن كل حملة سلكته -باستثناء الحملة الصليبية الأولى- كان مصيرها الضياع بين فيافي وهضاب آسيا الصغرى أو الفشل في تحقيق أي إنجاز[2].

فلو أخذ فردريك الطريق البحري مثل قائدي هذه الحملة (فيليب أوغسطس، وريتشارد قلب الأسد) لاستطاع الوصول إلى الشرق في أمان مثلهما، لكنه اختار الطريق الشاق ووضع بذلك جيشه في معاناة شديدة، فلم يكن الجيش الألماني يستطيع السير لمسافة ميل واحد في سلام، أو عبور نهر أو اجتياز جبل إلا ويجد العدو هناك في انتظاره، وحتى إذا سقط رجل أو ضل أحد منهم طريقه كان مصيره القتل وانتهى الأمر كله بغرق قائده في أحد أنهار آسيا الصغرى[3].

******

(1)Magnus of Reichersberg, Chronica, p. 517؛ Otto of St. Blasien, Third Crusade, p. 535؛ Sybel, Crusades, p. 83.

فشر، أوربا العصور الوسطى، ج١، ص١٨٧.

(٢) محمد الوسيمي، سلطنة سلاجقة الروم، ص٧٦.

(3)Church, Crusaders, p. 119.